قلعة النسيان

قلعة النسيان

رواية

عمرو أنور

الإسكندرية : حسناء للنشر

الطبعة الأولى : ٢٠١٨

ISBN 978 -977-6535-65-7

رقم الإيداع : ١٤٢٨١ / ٢٠١٨

ديوى : ٨١٣

٢٤٠ ص ، ٢٠ سم

{ جميع الحقوق محفوظة © }

الإسكندرية ، ج . م . ع

٠١٠١٨٨٣١٣٦١

٠٣/ ٥٧٦٥٧٧٧

المدير العام : عادل أبو الأنوار

المراجعة اللغوية : عادل أبو الأنوار

الإخراج الفنى : أمير مصطفى

قلعة النسيان

رواية

عمرو أنور

حسناء للنشر

إهداء

إلى أمي

التي علمتني أن العطاء دون توقف يؤدى إلي سعادة بلا حدود

إلي زوجتي

التي ساندتني طوال رحلة العمر

إلي أولادي

لكم مني كل المحبة والشكر

قلعة النسيان

لم أعد أتذكر متى كانت المرة الأولى التي التقت فيها نظرات عينيّ بنظرات عينيها، مرت شهور طويلة على هذا اللقاء، تواعدنا خلالها كثيرا، خرجنا سويًا، لهونا قدر ما شئنا، ضحكنا وتضاحكنا، نسينا أنفسنا بإرادتنا، أردنا أن ننسى، لم نفكر في شيء سوى ذاك الحب الذي بدأ صغيرًا ثم كبر شيئا فشيئا حتى أنني أصبحت لا أستطيع التفكير إلا فيها، وأجد أسعد لحظات حياتي وهي إلى جانبي.

لم يرد على خاطري يوما هاتف يؤرقني كما حدث في الأيام الماضية، كرهت النوم والفراش والليل مما رأيته، لاحقتني الأحلام الفزعة والكوابيس مع كل إغفاءة وفي كل لحظة أويت فيها إلى فراشي.

لم أكن أرى حولي سوى ظلمة بلا بصيص لأي نور، كأني أمشي في نفق مظلم ليس له نهاية.

في صباح ذلك اليوم تواعدنا كما تعودنا، الشمس مشرقة، الجو صحو، الطقس مائل قليلا للبرودة.

سرنا طويلا حتى بلغنا أطراف قريتنا، حيث الأشجار الوارفة والزهور البديعة والورود الجميلة، تلامست أيدينا، ثم تشابكت أصابعنا، وفي لحظة فارقة رفعت رأسها لأعلى ونظرت للسماء في نشوة وتنهدت قليلا وتمتمت بشفتيها، نظرت إليّ بطرف عينيها وابتسمت ثم قالت وهي ترفع يديها لأعلى ثم تخفضهما: . أريد للطفلة بداخلي أن تلهو وأن تلعب.

سحبت يديها برفق، توقفت عن السير ثم استدارت حتى أصبحنا وجها لوجه ثم قالت في هدوء وهي تضع إصبعها على فمي:
. عليك أن تجدني، إن وجدتني سأكون دوما لك، وإن لم تجدني، فحتما سأكون لغيرك!
أصابتني كلماتها القليلة بالصدمة، أفقت سريعًا لما التفت حولي فلم أجدها، نظرت يمينا ويسارًا، كان كل شيء كما هو، الأشجار الوارفة، الأغصان الكثيفة، الورود والزهور والرياحين والأعشاب الخضراء التي تغطي أرض الغابة، كل شيء كما هو!
إحساسي بالصدمة جعلني أتحسس نفسي بيدي كي أتيقن بأن ما حدث ليس حلمًا أو كابوسًا بل حقيقة، لم يكن ما حدث خيالاً يداعبني بل واقعا لا لبس فيه ولا إبهام.
لم يستغرق اختفاؤها سوى القليل من الوقت، سحبت يدها بلطف وتركت يدي ثم خطت بضع خطوات في هدوء ثم أسرعت تجري ثم اختفت عن عيني!
أسرعتُ أجري في كل اتجاه، أجرى بضع خطوات بسرعة ناحية اليمين ثم أتوقف وأحاول أن أسترق السمع علني أسمع صوت خطواتها هنا أو هناك ثم أعود وأجري ناحية اليسار ثم أتقدم بضع خطوات إلى الأمام ثم أعود إلى الخلف ثم ألتفت هنا وهناك ولكن دون جدوى.
تسارعت دقات قلبي، ناديت عليها بصوت تملؤه الحشرجة، ارتفع صوتي مناديًا، ثم متسائلا: أين ذهبت؟ ولماذا؟ ما الذي أغضبها؟
سرت طويلا في الغابة أبحث عنها بلهفة الحبيب المشتاق.

بدأت الأفكار السوداء تتلاحق على عقلي، أكاد أشعر بأني رأيت ما حدث في أحلامي.

مرت عليّ اللحظات كأنها أيام طويلة.

مع اقتراب الشمس من المغيب بدأت تتسرب إلى نفسي مشاعر اليأس، كان صوت الرعد يهز المكان وصدى صوته يزيد في نفسي الإحباط، بدأ الأمل في العثور عليها يتلاشى رويدًا رويدًا.

أزحت مشاعر الإحباط واليأس جانبًا وأقسمت بيني وبين نفسي أن أبحث عنها في كل مكان حتى وإن كلفني ذلك حياتي.

نظرت إلى السماء أطلب العون.

جاء المدد سريعًا، لما توسط القمر السماء فألقى بضيائه على المكان.

سرت طويلا.... طويلا حتى أدركني التعب، توقفت لحظات أنظر حولي، أبصرت من بعيد ربوة مرتفعة فكرت أن أصعد عليها، ربما أراها وهي تعدو هنا أو هناك تبحث عني أو تحاول العودة إلى المكان الذي اختفت فيه، ربما.....

أسرعت في اتجاه الربوة .

بينما أنا فى طريقي إليها لمحت خيالا من بعيد يشبه الكوخ، ولما اقتربت منه وجدته مبنيًا من الخوص.

هطلت الأمطار بغزارة، حولت الأرض تحت أقدامي إلى وحل، حتى أنني كنت أرفع قدمي بصعوبة من على الأرض.

أيقنت أني لن أجدها في هذا الطقس المطير وعليّ أن أجد مكانا أستريح فيه لبعض الوقت ثم أعاود البحث عنها.

سرت في اتجاه الكوخ ولما اقتربت منه لمحت ضوءًا خافتا يتسرب من بين أعواد الخوص، أدركت أن هناك من يسكنه، قلت لنفسي:

ربما تكون حبيبتي قد ضلت طريقها وهي تجري، فلجأت إلى هذا الكوخ تحتمي فيه من الأمطار التي بدأت في الهطول بغزارة.

اقتربت من باب الكوخ وطرقته بيدي، لم يأتني رد!

طرقته مرة أخرى بقوة، أتاني صوت من الداخل يسأل:

. من بالباب؟ انتظر قليلا حتى آتي إليك.

كان الصوت ضعيفًا، مرتعشًا.

تراجعت قليلا للوراء، سمعت صوت أقدام تتحرك في اتجاه الباب بصعوبة، صوت الباب وهو يُفتح كان عاليًا حتى بدا وكأنه لم يُفتح من أزمان.

أخيرًا رأيته..... رجلا قصير القامة، طويل اللحية والشارب، رث الملبس، كبير الفم، خالٍ من الأسنان، أنفه كبير، عيناه صغيرتان، تجاعيد وجهه تقول إنه هارب من الزمان، يتكئ على غصن شجرة ذبل من الأحزان.

نظر إليّ بتفحص وقال:

. من أنت؟ وما الذي تفعله في هذا المكان؟

. أبحث سيدي عن حبيبتي!

أثارت إجابتي تعجب الرجل وأخذ يحدق فيّ بعينيه الصغيرتين وهو يبدي اندهاشه بسؤال:

. هل اختطفها الأشرار يا ولدي، إنهم يعيشون في هذا المكان، إنهم ينامون بالنهار، ويجوبون الأحراش بالليل يبحثون عن فرائسهم.

. لا سيدي، لقد تركت يدي بإرادتها واختفت، وأنا الآن أبحث عنها في كل مكان.

هز الرجل ذو اللحية رأسه في اندهاش وتراجع خطوة للوراء بصعوبة وقال:

ـ ادخل لترى بنفسك، لا يوجد غيري في هذا الكوخ، ادخل يا ولدي لتستريح قليلا ولتحتمي من الأمطار، لقد ابتلت ملابسك بالكامل، ادخل ياولدي.....

تقدمني الشيخ وهو يمشي بصعوبة متكئًا على عصاه ثم توقف في منتصف الكوخ وأشار بعصاه إلى مقعد مصنوع من أغصان الأشجار وقال:

. اجلس يا ولدي.

لم تكن أرضية الكوخ أفضل حالاً من الخارج، قطرات المطر كانت تتسرب من بين أعواد الخوص من أكثر من مكان، فكونت بقعًا من الماء داخل الكوخ.

أضاف ضوء الشمعة الخافت إحساسًا بالكآبة، بادرته بسؤال:

. ماذا تفعل سيدي في هذا المكان الموحش؟ وماذا تأكل وأنت شيخ طاعن في السن؟ من أين يأتيك الطعام؟

نظر إليّ وقال:

. يا ولدي.. لم يخلقنا لكي ينسانا، سأريك في الصباح من الذي يأتي لنا بالطعام!!!

رويت للشيخ قصتي كاملة مع حبيبتي، كيف التقينا وكيف افترقنا.

خف سقوط المطر نسبيًا في الخارج وبدأ ضوء الفجر يتسرب من بين أعواد الخوص ليعلن عن مقدم يوم جديد.

قام الشيخ من مكانه وقال:

ـ اتبعني لأريك من أين يأتي الطعام؟ احذر أن تبتعد عني لئلا يصيبك مكروه.

سار الشيخ ببطء أمامي وأنا أتبعه في تؤدة، محاولا ألا أضل طريقي، وبعد أن خطونا خارج الكوخ بضع خطوات التفت إليّ وقال:

ـ انظر، وأشار بإصبعه إلى أسفل إحدى الأشجار الكثيفة الأغصان، آه لقد وقع في الفخ.

وجدت شيئا يتحرك محاولا الفكاك من الشرك المنصوب بدقة متناهية بين الأغصان.

وضع يده على كتفي وقال:

. يا ولدي أنا أقوم بنصب الفخاخ حول كوخي كي أحصل على طعامي من جهة ولكي أتقي شر مهاجمة الدببة والذئاب لي، كما ترى أعيش وحيدا، لا مفر من الاعتماد على النفس لأحصل على ما أريد.

اقتربنا من مكان الشرك، رأيت أرنبًا بريًا وقع في الفخ الذي نصبه له الشيخ، لقد أطبق الفخ على إحدى قدميه ومنعه من الفرار.

أمسك الشيخ بالأرنب من أذنيه ورفعه في الهواء بعد أن خلص قدمه من الفخ وقال بصوت تملؤه السعادة:

. آه... لقد حصلنا على وجبة الغداء.

. سانصرف الآن سيدي للبحث عن حبيبتي!

ـ تمهل يا ولدي قليلا، طريقك طويل وعليك التحلي بالصبر والتزود بالطعام، سأذبح هذا الأرنب ثم أقوم بسلخه على أن تجمع أنت الحطب، وبعد ذلك تشق طريقك للبحث عن حبيبتك وآمل أن تجدها، احذر الفخاخ وأنت تجمع الحطب.

لم يكن أمامي الكثير من الوقت، عليّ أن أنجز هذا العمل بسرعة ثم أتحرك مع شروق الشمس وآمل ألا تكون حبيبتي قد ابتعدت كثيرًا.

قام الشيخ بذبح الأرنب وسلخه ثم وضعه في قدرٍ به ماء يغلي، ولما شعر بأن لحمه قد نضج، رفعه من القدر ووضعه في جرابٍ من جلد الغزال وقال:

ـ هذا لك يا ولدي ليعينك على الطريق.

شكرته كثيرًا وقلت له:

ـ ما يشغلني سيدي الآن هو من أين أبدأ؟ لا أثر لها حتى الآن سوى عنقود صغير وجدته معلقا على أحد الأغصان وهو الذي وجهني للسير في اتجه كوخك.

شعر الشيخ بالحيرة التي كادت أن تذهب عقلي، فقام من مكانه واتجه إلى خارج الكوخ وأشار بإصبعه بعيدًا وقال:

ـ توجد هناك أعلى هذا الجبل قلعة تُسمى "قلعة النسيان" ربما تكون حبيبتك قد أوت إليها، بعدما ضلت طريقها، ليتني أستطيع الذهاب معك إلى هناك ولكن كما ترى، فأنا شيخ كبير والطريق إلى هناك يحتاج إلى جهد كبير، ثم نظر إليّ وقال:

ـ احذر الحراس فإنهم أشداء، إن وقعت في أيديهم سيفتكون بك.

شددت الرحال في اتجاه الجبل الذي أشار إليه الشيخ وصدى كلماته مازال يتردد في أذني:

احذر الحراس فإنهم أشداء..... احذر الحراس فإنهم أشداء.....

اتخذت من الأشجار العالية ساترًا لي، كى لا يشعر بي أحد وأنا اقترب من القلعة، وصلت أخيرًا إلى درج من البلور والمرجان، صعدته على أطراف أصابعي، فوجدت أسوارًا تحيط بالمكان، عتيقة البناء شاهقة البنيان، باب القلعة قديم قدم الزمان، أبراج تزين الأسوار خالية من إنسان.

علا صوتي فاهتزت الأرجاء من النداء، يا حراس الأبواب، أنا وحيد أعزل، أبحث عن فتاة في عمر الزهور شُغِلْتُ بها من أزمان، بيضاء وعيونها كعيون الغزلان، فمها كخاتم سُليمان.

هل شاهدها أحدكم تجوب المكان؟

جاءني صوت كفحيح الأفعى:

. اذهب ولك الأمان، إن اقتربت سيحترق المكان، هذه القلعة لم تدنسها الأقدام من أزمان.

استدرت عائدًا إلى حيث كوخ العجوز كان، وجدته جالسا يراقب الفخاخ التي نصبها حول المكان، ولما رآني اقترب، اتكأ على عصاه ثم وقف بصعوبة وسألني بلهفة:

. هل وجدتها يا ولدي؟

ـ لا سيدي، لم أستطع بلوغ المكان، طردني الحراس ولم يفتحوا لي الأبواب، طلبوا مني الانسحاب وإلا فسينزلون على رأسي العقاب.

هدأ الشيخ من روعي وأخذ يربت بحنوٍ على كتفي وهو يقول:

. سأفعل الصواب، سوف أعينك يا ولدي على الأخذ بالأسباب.

ـ أعرف سردابًا قريبًا من هنا، إن سلكته فسيقودك إلى داخل "قلعة النسيان"، ولكن عليك الآن يا ولدي أن تأخذ قسطا من الراحة فالمشوار مازال طويلا.

اتجهت إلى أحد جوانب الكوخ حيث توجد أعواد الخوص، قمت بفرشها على الأرض، ثم وضعت حذائي تحت رأسي ورحت في سبات عميق.

مرت ساعات لم أشعر فيها بشيء.

رأيت حبيبتي بين الأشجار، وهي تنظر وراءها لتراني إن كنت أتبعها أم ما زلت بعيدًا عنها، وبينما هي تنظر ورائها وهي تجري تعثرت قدماها فوقعت في حفرة عميقة مملؤة بالماء، ظلت تصرخ وتصرخ وهي تنادي باسمي.

أفقت من نومي على صوت الشيخ وهو يهمس في أذني:

. هيا يا ولدي، استيقظ، لقد حان وقت الرحيل.

ما إن فتحت عينيّ حتى تيقنت أنني كنت أحلم بفتاتي.

أسرعت بالنهوض من على أعواد الخوص وسألت الشيخ:

. كم بقيت نائما سيدي؟

أجاب وهو مبتسم:

. كثيرًا يا ولدي، منذ أن أغمضت عينيك وأنت تهذي باسمها، تارة تنادي عليها، وتارة أخرى ترفع قدميك ثم تضعهما على الأرض كأنك تجري وراءها، وتارة ثالثة تبكي ودموعك تسيل على وجنتيك، كنت يا ولدي أنظر إليك وأنت نائم وأنا مشفق عليك كثيرًا مما تعانيه، عاهدت نفسي أن أساعدك على الوصول إلى "قلعة النسيان" ولو كلفني ذلك حياتي، أسرع يا ولدي، سنتأخر، علينا بلوغ السرداب قبل غروب الشمس.

سار الشيخ أمامي ببطء شديد متكئًا على عصاه، وأنا أسير خلفه ببضع خطوات وعيناي تتابعانه خشية أن يسقط على الأرض، والصخور تملأ المكان، حينما رأيته يترنح، أسرعت إليه ووضعت يدي تحت إبطه لأساعده على السير، نهرني برفق قائلا:

ـ لا تخشَ عليّ يا ولدي، رغم أني شيخ كبير، إلا أنني أستطيع أن أشق طريقي بيسر حتى بين الصخور.

ابتسمت له مؤكدًا كلامه، رغم أني لم أكن مقتنعا بما قاله.

تبادلنا أطراف الحديث بصوت منخفض إلى أن وصلنا إلى فتحة قريبة من جدول ماء ولكنها مسدودة بالصخور الكبيرة.

ـ وراء هذه الصخور فتحة السرداب، علينا يا ولدي أن نرفع هذه الصخور الواحدة تلو الأخرى من أمام فتحة السرداب ثم ندلف إلى الداخل، لن نستطيع السير فيه أنا وأنت جنبا إلى جنب، سأمسك بطرف عصاي وأنا أزحف على الأرض وأنت تمسك بالطرف الآخر، المكان يعج بالحشرات وربما الأفاعي، فهو مهجور منذ سنوات طوال،عليك الحذر يا ولدي لئلا يصيبك مكروه، لقد أحضرت معي ما تبقى من شمعة كانت في الكوخ لتضيء لنا ولو قليلا ذلك السرداب.

ما إن هممت بأن أتحدث إليه عن ضيق السرداب حتى دفع العصا التي أمسك بطرفها برفق في اتجاهي وقال: . أصمت فللأرواح آذان!!!

كان السرداب غارقًا في مياه الوديان، ضيقا حرجًا، لا يكاد يعبره إنسان، الرفات والعظام تتناثر في كل مكان، جيف الحيوانات التهمتها الجرذان، جثث الموتى أكلتها الديدان.

توقف الشيخ عن الزحف في السرداب وأشار لي كي أتقدم، ولما أصبحت إلى جانبه همس في أذني قائلا:

- الجزء الباقي من السرداب لا يسعنا نحن الاثنين، لا يحتمل إلا واحدًا منا، سأعود أنا من حيث جئت وستكمل أنت ما بدأته أنا، احذر يا ولدي أن تتأخر في الوصول إلى "قلعة النسيان" فمياه النهر تملأ ذلك السرداب مع المد، لا تلتفت وراءك، انظر دائمًا للأمام، تقدم الآن في أمان، أما أنا فأعوذ بالله من الشيطان.

❊ ❊ ❊

الاختيار

انسحب الشيخ بعد أن أسدى لي معروفا ودلني على طريق أمشي فيه فأصل إلى حبيبتي التي اختفت، لم يكن أمامي إلا أن أكمل مشوار البحث عنها.

عاودت الزحف بسرعة داخل السرداب وأنا لا أفكر إلا فيها.

توالت الأفكار على ذهني وأنا أزحف ببطء في السرداب، بعضها يثبط من عزيمتي في استكمال الطريق، وبعضها الآخر يدفعني إلى التشبث بالأمل في أن أجدها.

لم أعرف كم أمضيت في السرداب من وقت، إلى أن أبصرت شعاعا من الضوء يأتي من بعيد، لحظتها أدركت أني على وشك بلوغ النهاية.

كان صوت تدفق الماء في السرداب دافعًا لي كي أسرع في الزحف خشية أن يرتفع المد داخل المكان وألقى حتفي غرقًا كما حدث لكثيرين غيري حاولوا عبور هذا السرداب ولم يُفلحوا في الوصول إلى نهايته.

اقتربت أكثر فأكثر من الضوء الآتي من طرف السرداب، وما إن وصلت إليه حتى وجدت طريقين، أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار.

كانا أكبر حجمًا إلى حد ما، بالكاد استطعت الوقوف على قدمي، مع انحناء بسيط في ظهري، كان عليّ الاختيار، إما أن أمشي في الطريق الأيمن ولا أعلم ما الذي ينتظرني فيه أو أختار الطريق الأيسر ولا أعرف ماذا يخبئ لي القدر فيه، قراري سيحدد مصيري، عليّ أن أتخذ قراري

الآن، مياه الأمطار بدأت تعلو داخل السرداب حتى بلغت كاحلي، أخشى أن تواصل الارتفاع وألقى حتفي في هذا المكان.

توقفت لحظات أحاول الإجابة على سؤال، لمَ لم يدلني الشيخ على الطريق الذي أسلكه داخل السرداب؟ أم أنه قال وأنا لم أفهم مقصده؟

بدأت أستعيد ما قاله الشيخ لي قبل أن يتركني، نعم لقد قال شيئا مبهمًا، لحظتها لم أدرك أنه يقصد شيئا معينا، لقد ظننت أنه لا يعني ما يقول أو أنني لم أسمعه جيدًا.

قال وهو ينظر إليّ:

ـ يا ولدي كلنا من أصل واحد ولكن الفروع اختلفت، البعض ينمو في استقامة والبعض الآخر في انحناء والبعض الثالث في التواء، إن كان النماء إلى اليمين فالحبل متين، وإن كان إلى اليسار فسنحترق بالنار.

لم أفهم لحظتها ماذا كان يعني، إلى أن وصلت إلى فتحتي السرداب إحداهما إلى اليمين والأخري إلى اليسار وأنا حائر، أيهما أسلك وأكون بأمان، وبعد أن استرجعت كلام الشيخ، قلت في نفسي عليّ أن أتبع حدسي.

خَطَوت بتُؤدة ناحية الفتحة إلى اليمين، ما هي إلا لحظات وبدأت أسمع خرير الماء يأتي من الفتحة اليسرى، نعم، لقد بدأ تدفق مياه الوادي إلى الفتحة اليسرى بشكل أسرع من تدفقه في الفتحة اليمنى، أدركت ساعتها أنني على حق، لقد صدق حدسي.

كان السقف في المكان الذي اخترت أن أمشي فيه مرتفعًا عن الجزء الذي اضطررنا أنا والشيخ إلى الزحف فيه على أيدينا وأرجلنا،

ومرتفعا أيضًا عن الجزء الذي اضطررت أنا أن أمشي فيه محني الظهر قليلاً.

الآن أقف بكامل قامتي، لذا أستطيع الآن أن أخطو بشكل أسرع مما سبق حتى أتجنب الغرق في هذا المكان الموحش.

ربما من قام بحفر هذا السرداب تعمد تقسيمه إلى ثلاثة أجزاء لكى يختبر إرادة وقوة العابر فيه، وهذا يفسر لي أيضاً كثرة عدد الجثث الملقاة داخله والتي لقىً أصحابها حتفهم غرقا حينما امتلأ السرداب بمياه الوادي.

أسرعت الخطى متوجها ناحية مخرج السرداب، كانت الصخور تسد نهايته، ظللت أرفع صخرة تلو الأخرى حتى بدأ النور يتسرب إلى الداخل، رفعت رأسي قليلا، أحاول أن أرى ما يحدث في الخارج.

هل وصلت بالفعل إلى الحديقة المؤدية إلى "قلعة النسيان" كما قال الشيخ أم أنه لم يكن يعي ما يقول؟!

لحظات وأرفع الصخرة الأخيرة من مكانها وأخرج رأسي كاملا من تلك الفتحة وأنظر حولي.

أخيرًا، استطعت أن أخرج رأسي من الفتحة لأرى وياللعجب.

إن المكان يشبه الجنة الموعودة، حدائق ورد وياسمين وريحان، النخل باسقات، وأشجار التين والزيتون، عناقيد العنب تتدلى لتعانق أشجار الرمان، يتوسطها قلعة مشيدة من الياقوت والمرجان، أضواء خافتة والضباب ينتشر في سماء المكان، وقباب تخطف الأبصار والألباب، وحور عين تسبح في بحيرات امتلأت بدموع الأحباب، وجواري تلهو

بخطابات العزاب، وينابيع المياه القرمزية بلون دماء الخطاب تحيط بتماثيل من الذهب ترفع أكف الضراعة للوهاب.

كان عليّ أن أخرج زاحفا من فتحة السرداب وأتخطى حراس المكان الذين كانوا يمشون جيئة وذهابًا باحثين عن المتطفلين أو المغامرين أو الباحثين أمثالي عن أحباب.

أخرجت رأسي ببطء من فتحة السرداب لأستكشف مكان وجود الحراس، وما هو أنسب طريق أسلكه دون أن يلحظ وجودي أحد.

هناك قباب على مداخل الأسوار، داخل كل واحدة منها حارس ضخم الجثة، ينظر بإمعان تجاه كل شيء يتحرك داخل حديقة القلعة، وهناك حراس آخرون يراقبون الأسوار من الداخل.

أيقنت أن الأمر لن يكون سهلا، كيف سأتجاوز كل هؤلاء وأدخل "قلعة النسيان" باحثًا عن حبيبتي؟

فكرت في أن انتظر حلول الظلام كى أتحرك ولكن ما أدراني بما سيحدث، عليّ أن أفكر بسرعة فيما يجب عمله كى أتجاوزهم.

هل أخرج زاحفا على العشب الذي يغطي أرض حديقة القلعة؟ أم أشتت انتباههم؟

أخيرًا طرأت على بالي فكرة تجعلهم لا ينتبهون لوجودي!

أفرغت بسرعة ما بداخل الجراب المصنوع من جلد الغزال من الطعام وقارورة الماء، ثم عدت خطوات إلى داخل السرداب أبحث عن الفئران التى تعج بالمكان، أمسكت بالواحد تلو الآخر، كلما أمسكت واحدًا علا صراخه، كأنما يستنجد بالحراس لينقذوه مني، وضعت عددًا لا بأس به

داخل الجراب حتى امتلأ عن آخره، ثم أخرجت الجراب في هدوء من فتحة السرداب وأفرغت ما فيه في لحظات.

جرت الفئران في كل اتجاه محدثة فوضى في المكان.

أطلق الحراس صفاراتهم، صرخ كبيرهم قائلا:

. الجرذان تملأ حديقة القلعة، عليكم إبادتهم لئلا تنالوا العقاب.

ترك الحراس أماكنهم وأخذوا يتتبعون الجرذان في محاولة للقضاء عليها.

أسرعت بالخروج من فتحة السرداب وكل ما أفكر فيه هو الدخول إلى القلعة التي شيدت من أحجار الياقوت والمرجان.

زحفت بسرعة على الحشائش حتى وصلت إلى أحد جدران القلعة، كانت أحجارها مُصْمَطة، لم يكن بالجدار فتحات قريبة من الأرض سواء للشرفات أو النوافذ، فكرت في أن الموقف يزداد صعوبة، عما قليل ينتهي الحراس من مطاردة الجرذان وسوف يعود كل منهم إلى مكانه، وأنا لم أصل إلى مكان أختبئ فيه بعد.

ما العمل الآن؟

لابد أن أتجاوز هذه الجدران وأن أدخل إلى القلعة، لن أستسلم لهذه النزعات من اليأس، بالتأكيد، هناك مكان يسمح لي بالدخول وإلا فكيف يعيش من فيه؟ ولماذا كل هذا العدد من الحراس؟ هل كل عملهم هو حراسة القلعة فقط أم حراسة من فيها؟

كان الوقت يمر سريعًا وأنا قابع في مكاني، أفكر في طريقة ما للدخول إلى القلعة.

لقد تجاوزت عقبات كثيرة حتى وصلت إلى داخل حديقة القلعة، لا يفصلني عن حبيبتي إلا هذا الجدار، ليتني أستطيع تسلقه أو نزع أحد أحجاره.

بينما أنا جالس في مكاني أفكر في طريقة لدخول القلعة خطرت على بالي فكرة شيطانية،

بما أن سردابا قادني إلى هنا، بالتأكيد هناك آخر يقودني إلى داخل القلعة، عليّ الآن وبسرعة أن أبحث عن فتحة هذا السرداب.

❊ ❊ ❊

الأفكار السوداء

كثافة أشجار الزينة والأغصان حول جدران القلعة ساعدتني كثيرًا على الاختباء من أعين الحراس.

مشيت ببطء محني الرأس والظهر، لا أكاد أرفع رأسي إلا لأتأكد أنه لم يرني أحد من الحراس، تابعت سيري وأنا أنظر هنا وهناك أبحث عن صخرة كبيرة تسد فتحة ما أو عن شيء آخر يشير إلى وجود فتحة سرداب تحت الأرض.

بينما كنت أرفع فرع شجرة ضخم من على الأرض، وجدت بابًا حديديًا صغيرًا!

أزحت ببطء فرع الشجرة واقتربت من الباب الحديدي الذي كان أسفل الجدار، فتحته ببطء حتى لا يحدث صوتا يلفت انتباه الحراس.

سألت نفسي:

ولكن ما هي الخطوة التالية؟ هل أغلق هذا الباب الحديدي ورائي بعد أن أدخل؟

حتى لا يشعر الحراس بأن أحدًا ما قد دخل من هذا الباب ويدخلون ورائي ويحاصرونني بالداخل، ولا أعلم ماذا سيفعلون بي؟

وإن أغلقته ورائي ووصلت إلى نهاية السرداب ولم أجد شيئا، كيف سأخرج ثانية من هذا المكان؟

أخيرًا استقر رأيي على أن أغلق الباب ورائي مخافة أن يتبعني أحد من الحراس وقلت في نفسي، إن من فكر في حفر هذا السرداب، لابد وأن حساباته لم تتوقف عند هذا الباب الصغير، لا بد وأن هناك مخرجا آخر، بالتأكيد هو داخل القلعة.

أخيرًا قررت أن أتبع حدسي ثانية، أغلقت باب السرداب ورائي ثم مددت يدي من بين الأسياخ الحديدية وأعدت فرع الشجرة إلى مكانه.

بدا السرداب مخيفا من الداخل، كان أكبر حجمًا من سابقه الذي أدخلني إياه الشيخ وقادني إلى هذا المكان.

لم يكن السرداب مستقيما من الداخل بل متعرجًا ، جدرانه من الصخور، ويبدو أن من فكر فيه كان يبحث عن مخرج من داخل القلعة إلى خارجها في حال تعرض لسوء، فأخذ يقتطع من الصخور الموجودة إلى أن أكمل عمله بنجاح.

ولكن إلى أي الأماكن يفضي بي هذا السرداب ؟ هل إلى سجن أسفل القلعة؟ أم إلى داخل بهو ما؟ أم إلى داخل غرفة من غرف القلعة؟ ربما أجد فيها حبيبتي!

راودتني هذه التساؤلات وأنا أتحرك ببطء داخل السرداب، كنت أتحسس الجدران حتى لا أضل طريقي فيه أو أتعثر في شيء هنا أو هناك أو أسقط في حفرة ما أو تعلق قدمي في فخ نصبه من فكر في نحت هذه الصخور تحت القلعة.

كنت أنزل بضع درجات ثم أمشي خطوات قليلة ثم أصعد درجات أخرى إلى أن وصلت إلى نهايته.

يا إلهي.....

لقد اصطدمت بباب صغير يشبه إلى حد كبير الذي دخلت منه، أمسكت بالقضبان الحديدية للباب وحاولت جذبه إلى داخل السرداب، لم أستطع ! لقد بلغ به الصدأ مبلغا كبيرًا أعاق حركته.

عاودتني الأفكار السوداء ثانية .

إن لم أستطع فتح هذا الباب فسوف أموت هنا بلا شك، لأنني أغلقت الباب الخارجي، الحل الوحيد الذي أمامي الآن هو فتح هذا الملعون !

يبدو أن الأفكار السوداء التي كانت تراودني، رغم أنها كانت تثير في نفسي حالة من الإحباط واليأس، إلا أنها في أحيان أخرى كانت تدفعني دفعا للبحث عن حل لمشكلة أواجهها وكانت تجعلني أشحذ تفكيري لكى أنجو من موقف ما وقعت فيه، أو أوقعتني فيه الأقدار.

لم يكن أمامي بد من محاولة فتحه بأي صورة كانت.

عدت خطوات قليلة للخلف ثم اندفعت بقوة ورفعت قدمي قليلا ثم دفعت بباطن قدمي الباب بقوة، تأرجح قليلا ولكنه ظل في مكانه، عاودت ركله مرات ومرات حتى سمعت صريرًا ثم دفعته بكلتا يديّ فانفتح قليلاً .

وضعت جسمي بين الجدار وبين الباب ثم دفعته بقوة بكلتا يديّ، أخيرًا استطعت الخروج من السرداب.

كانت أمامي درجات سلم لأعلى، صعدتها ببطء شديد، خوفا من أن يكون أحد ما قد سمع صرير الباب وهو يُفتح، أو أن يكون أحد ما قد سمع صوتي وأنا أركل الباب بقدمي.

ما إن وصلت إلى درجة السلم الأخيرة حتى وجدت بابًا خشبيا، ظللت أتحسسه، علني أجد شيئا يرشدني إلى ما بعده، وجدت ثقبين صغيرين،

بالكاد أستطيع النظر منهما إلى ما ورائه، اقتربت أكثر فأكثر من الثقبين ونظرت منهما، فوجدت سيدة عجوز تجلس على كرسي هزاز في أحد جوانب الغرفة، أمام الشرفة الوحيدة وتمسك بعصا صغيرة تهتز في يدها.

كانت السيدة العجوز تنظر بإمعان لبلورة أمسكتها بإعتزاز .

لم يخطر على بالي وأنا داخل هذا السرداب اللعين أنه سيقودني في النهاية إلى حجرة تجلس فيها سيدة عجوز ترتدي ملابس سوداء تجلس على كرسى هزاز، لا تحرك ساكنا، عيناها مفتوحتان، تنظران إلى خارج الشرفة بشغف واهتمام، بدت وكأنها تترقب وصول شخص ما.

لم أستطع رؤية الكثير من خلال ثقبي الباب، ماذا أفعل الآن؟

هل أركل الباب بقدمي بقوة وأفتحه كما فتحت باب السرداب؟ أم أطرق عليه بلطف؟

ما زلت أراها لا تتحرك، فقط رموش عينيها هي دليلي الوحيد على أنها ما زالت حية.

وماذا أفعل إن صرخت؟ وسمع الحراس في الخارج صوت صراخها ثم أتوا وألقوا بي في ذاك السرداب اللعين.

تداعت ثانية الأسئلة على ذهني عن رد فعل هذه السيدة العجوز التي تجلس في هدوء وتبدو كالملائكة ولكن بملابس سوداء.

بينما أنا أفكر في إجابات على الأسئلة التي تلاحقت على ذهني، التفتت السيدة العجوز ناحية الباب الذي أقف خلفه ونظرت إليه بإمعان للحظات.

أحسست أنها تراني من خلفه،

هممت أن أعود إلى الوراء وأنزل درجات السلم مرة أخرى محاولا الاختباء، لئلا تكشف أمري للحراس، ثم انتظر إلى أن تخرج من الغرفة أو يغلبها النعاس، في تلك اللحظة أستطيع الخروج بهدوء وأبحث عن حبيبتي.

وضعت السيدة العجوز البلورة على منضدة صغيرة إلى جانبها وأخذت تحرك شفتيها دون أن تصدر صوتا وهي مازالت تنظر في اتجاه أسوار القلعة.

كانت متلهفة على رؤية شيء ما، شيء ضاع منها، ربما من سنوات.

التفتت السيدة العجوز مرة أخرى ونظرت ناحية الباب الذي أقف خلفه ثم رفعت البلورة من على المنضدة الصغيرة ووضعتها مرة أخرى على قدميها وقالت في هدوء وبصوت أكاد أسمعه:

حبيبتك يا ولدي جميلة الرسم، بالغة الحسن، طويلة الأهداب، واسعة العينين، ازدان الكحل بعينيها، وراود العشاق شفتيها، عيونها لماحة، عطور جسدها فواحة، بيضاء الوجه، سوداء الشعر، الأنف صغير والوجه مستدير، ورود الخد عليك تنادي، الخصر نحيل، القد منسجم، تتهادى في سيرها، حالمة في صوتها.

ما إن سمعت هذه الكلمات الرقيقة عن حبيبتي، حتى أيقنت أن السيدة العجوز تشعر بوجودي.

إنها تراني، ربما ليس بعينيها ولكنها بالتأكيد تراني بقلبها.

عاودت النظر من خلال ثقبي الباب، لم تكن السيدة العجوز تجلس على كرسيها، كان خاليا يتأرجح.

قلت في نفسي:

ربما أدركها التعب من الجلوس طويلا أمام هذه الشرفة، فقامت من مكانها وقصدت مكانا آخر أو ربما داعبها النعاس، فتركت هذا الكرسي وقصدت فراشها لتنام.

عاودت النظر من خلال ثقبي الباب، ربما أجد دليلا على صحة ظني، لم أرَ شيئا غير سواد.

ربما أطفأت الشمعة التي كانت تضيء الغرفة، ربما كانت حبيبتي هنا أو هناك، ربما أمسكوا بها وقيدوها ثم تركوها في مكان ما، ربما ... ربما...

❊ ❊ ❊

وجها لوجه

خُيل إليّ أن مزلاج الباب الذي أقف خلفه قد تحرك ببطء، ثم بهدوء بدأ الباب يُفتح وقد أصدر صريرًا ضعيفا.

لم يكن خيالا، بل حقيقة، وجدتها ماثلة أمامي.

أصابني الذهول لحظة، حسبتها زمنا طويلا، عيناي تنظران إليها وفمي مفتوح من هول الصدمة.

انتابني إحساس بالرهبة وسرت القشعريرة في جسدي، فلم أكن أتوقع أن أواجه عجوزًا، بل كنت أتوقع أن أواجه حراس تلك القلعة، لا يهمني ماذا كانوا سيفعلون بي، المهم هو أن أرى حبيبتي وأطمئن عليها.

جال بخاطري أن أندفع بسرعة في اتجاه هذه السيدة ثم أدفعها بكلتا يديّ للخلف وما إن تقع على الأرض حتى أجثم على صدرها وأضع يدي على فمها لأمنعها من الصراخ أو استدعاء الحراس.

ولكن لماذا كل ذلك؟

إنها تبدو مبتسمة، ربما تريد أن تشعرني بالطمأنينة، لوكانت تريد الإمساك بي لاستدعت الحراس وأشارت إليهم ناحية الباب لأنها تشك بأن أحدا ما يقف خلفه، ولكن بما أنها قامت من مكانها وفتحته بنفسها، بالتأكيد لا تضمر لي شرًا.

هدأ من روعي كثيرًا هذا التفسير!

ظلت السيدة العجوز تنظر إليّ وهي مبتسمة وأنا أنظر إليها في خوف وحذر.

تراجعت السيدة خطوة للخلف وقالت وهي تنظر إليّ:

. تأخرت كثيرًا يا ولدي؟

أشارت لي كي أتقدم وأدخل غرفتها، وما إن دخلت حتى أغلقت بنفسها الباب ورائي ثم تقدمتني وعادت في هدوء إلى كرسيها الهزاز، وعادت للنظر من شرفة غرفتها في اتجاه الطريق المؤدي لأسوار القلعة.

لم أستطع أن أفهم ما تقصده بسؤالها هذا، هل كانت تتوقع حضوري؟ أم أن الأمر قد التبس عليها، وكانت تنتظر شخصا آخر، وتأخر في الحضور إليها!

صمت قليلا وقلت لها:

. عفوا سيدتي، لقد حضرت بأسرع ما يمكنني، في المرة الأولى التي اقتربت فيها من هذا المكان، نهرني الحراس وحذروني من الاقتراب من سور القاعة وطالبوني بالعودة من حيث جئت، وفي المرة الثانية سلكت سردابًا وراء آخر حتى وصلت إلى هذه الغرفة، لم أعرف أن أحدًا ما ينتظرني.

ولكن، كيف عرفت سيدتي بأني سآتي إلى غرفتك؟

ابتسمت السيدة قليلا وأشارت إلى بلورتها السحرية الموضوعة على منضدة صغيرة كانت إلى جانب الكرسي الهزاز، وقالت:

ـ هذه البلورة، رأيتك فيها تجري بسرعة مرة ناحية اليسار، ثم تعود وتجري مرة أخرى ناحية اليمين، ثم تتقدم للأمام، ثم تعود ثانية للوراء، ثم تقف مكانك وتتلفت هنا وهناك، وعلامات الجزع تبدو على وجهك.

أيقنت يا ولدي أنك تبحث عن شيء ثمين ضاع منك.
والمرة الثانية التي رأيتك فيها، كنت تتحدث إلى شيخ طاعن في السن وتحكي له قصتك مع حبيبتك التي اختفت فجأة.
ازداد اندهاشي من حديثها لي ولذلك بادرتها بالقول:
. ولهذا سيدتي جئت إلى هذه الغرفة أبحث عنها.
. هذه الغرفة لم تطأها أقدام بشر من أزمان ياولدي.
تقدمت خطوة فأخرى وأنا أنظر حولي، ربما أجد حبيبتي مقيدة في ركن من الأركان.
رأيت منضدة صغيرة عليها بلورة في حجم ثمرة "البرتقال" وإلى جانبها "تنور" يتصاعد منه ما يشبه عامودًا من الدخان، وإلى جانب المنضدة، الكرسي الهزاز الذي كانت تجلس عليه السيدة مازال يتأرجح.
نظرت إلى أحد الجدران فوجدت رفا صغيرًا وعليه شمعة تضيء بقدر ضئيل أنحاء الغرفة، وعلى يمينها سيف ضخم حاد الشفرتين، يده مصنوعة من الذهب الخالص، ومطعمة بالألماس، وعلى الجانب الأيسر درع، ما زالت عليه آثار دماء، ولما نظرت ناحية اليسار، وجدت خوذة من الحديد وبها اعوجاج من المنتصف، ربما من أثر ضربة بالسيف أو بالرمح معلقة على الجدار الثاني، وعلى الجدار الثالث وجدت ملابس كالتي يرتديها الفرسان في الحرب.
استدرت إلى السيدة وقد ازداد اندهاشي مما رأيت !
وقفت في منتصف الغرفة لحظات لا أعرف ماذا أفعل.

❊ ❊ ❊

أنات الحرمان

تنامت إلى مسامعي في تلك اللحظة أصوات خافتة لصراخ وعويل ثم أخذت ترتفع شيئا فشيئا.

سألتها وعلامات الجزع بادية على وجهي، سيدتي هل تسمعين هذه الأصوات:

ـ لقد سمعتها في المرة الأولى وأنا داخل السرداب قبل أن أصل إلى غرفتك، حتى ليخيل إليّ أني أسمع من بينها صوت حبيبتي وهي تتألم وتصرخ !!!

ـ إنها يا ولدي أصوات قلوب المحبين، إنها أنات الحرمان، فقلوب العاشقين حبيسة المكان، عانت كثيرا من الهجرعبر الزمان، قلوبهم تطوف في الأركان تطلب الغفران.

تنهدت السيدة العجوز ثم عاودت النظر في البلورة وقالت:

ـ يا ولدي عليك بالأغراب، حبيبتك ما زالت في أمان ولكن لا أعرف أين هي الآن!! أو ماذا سيحدث لها بعد الآن.

اقتربت منها وقلت:

ـ سيدتي، ألا أستطيع أن أرى ماذا سيحدث غدًا؟

بينما أنا أضع يدي على البلورة وأمعن النظر فيها، استدارت إليّ وهي متجهمة وقالت:

. اصمت لئلا ينتقم منك الرحمن، الغد لخالقه لن ترى في البلورة إلا ما كان.

استعدت هدوئي وحاولت أن أخفف من حدة انفعالها وسألتها:

ـ منذ متى وأنت تجلسين في هذا المكان سيدتي؟ ومن الذي تنتظرين قدومه؟

أطالت السيدة النظر لأسوار القلعة، ولم تنبس شفتاها بكلمة لحظات ولحظات وأنا أقف إلى جانبها، كأنما تسترجع ذكريات الماضى البعيد، الجميلة منها والحزينة.

بدا وجه السيدة في البداية مبتسما كأنما استرجعت ذكريات جميلة، لحظات ثم تحول إلى وجه عابس، وبعد لحظات أخرى تحول وجهها إلى وجه متجهم ثم إلى وجه حزين.

أغمضت السيدة العجوز عينيها وأرجعت رأسها للوراء قليلا، انسابت دمعة من عينيها على وجنتيها كأنها لؤلؤة هوت من أعلى جبل ملأته الأحزان.

وفي نبرة حزينة قالت:

. إنها قصة طويلة يا ولدي.

صمتت قليلا ثم فتحت عينيها وعاودت النظر إلى سور القلعة، وأشارت بإصبعها إلى الباب الرئيسي وقالت في هدوء:

. على يسار ذاك الباب، كان يقام كل صباح سوق يباع فيه ما يخطر على الألباب، يشتري منه الناس كل شيء من التوابل إلى الأخشاب، ويأتي إليه الباعة من كل حدب وصوب، ويبيع فيه الناس ويبتاعون حتى الجواري والعبيد من الشباب.

في صباح أحد الأيام حضرت إلى جناحي كبيرة الوصيفات وقالت :
. سمو الأميرة "علياء".. مولاي الملك يطلبك في جناحه الخاص!
كانت يا ولدي هذه من المرات القلائل التي يستدعيني فيها أبي، كان قبل ذلك يأتي إلى جناحي ليضع قبلة على جبهتي وأنا نائمة ثم ينصرف في هدوء إلى جناحه لكى يتابع شئون المملكة.
كان أبي شديد البأس، قوى الشكيمة، محارب وفارس من طراز رفيع، قوي البنيان، تبدو على قسمات وجهه الجدية حينما يصدر أمرًا ما لأحد، الهيبة والوقار عنوان له، حاجباه كثيفا الشعر متناسقان، عيناه صغيرتان وعميقتان له نظرات ثاقبة، حادة أحيانا، لحيته قصيرة الشعر مهندمة، كسا البياض كثيرًا من شعر رأسه ولحيته فزاده وقارًا وهيبة، أنفه صغير، شفتاه غير مكتنزتين، طول قامته أضفى عليه رفعة وسموًا.
يهابه الغائب والحاضر، لا يتكلم كثيرًا، يشير دائمًا بإصبعه الذي يرتدي فيه خاتم الملك إلى أعلى كلما تحدث إلى أحد وزرائه، ويوجهه إلى الأمام إشارة إلى عتاب أحد يحدثه من الأمراء والنبلاء.
يقف إلى جانبه الأيمن دائما وأبدًا حارسه الشخصي "مهاب"، أسود البشرة، مفتول العضلات، ثاقب النظرات، على استعداد للنزال في لحظات، أهداه أبي خنجرًا خالصًا من الذهب لما أنقذ حياتي من الموت على أيدي الذئاب.
اختاره أبي حارسًا شخصيا له بعناية فائقة، فلهذا الاختيار قصة طريفة.
كان أبي فارسًا بارعا في المبارزة بالسيف وفي ركوب الخيل، استطاع خلال أحد تدريباته أن يهزم كل من تصدى لمبارزته، فسئم المبارزة مع

من هزمهم بسهولة، لذلك أرسل مناديًا ليعلن عن مسابقة في ركوب الخيل والمبارزة بالسيف تكون جائزتها سيف الملك.
بالفعل، طاف المنادي أنحاء المملكة ليعلن عن المسابقة وعن الجائزة.
فى صباح يوم المسابقة، حضر العشرات من الفرسان، وبدأوا التصفية فيما بينهم.
في اليوم الأخير حضر أبي لكي يشاهد بنفسه الفارس الأفضل، انتهت التصفيات بصعود ثلاثة فرسان من بينهم "مهاب"
كان من بين شروط المسابقة أن يتغلب الفائز على جميع الفرسان خلال الأيام التي تقام فيها المسابقة، وفي النهاية على الفائز أن يتغلب على الملك في ساحة أعدت خصيصًا لهذا الغرض بدأت التصفيات النهائية بين الفرسان الثلاثة، ثم انتهت بفوز الحارس "مهاب"
في اليوم الأخير ارتدى أبي ملابس الحرب كاملة وتوجه إلى ساحة المبارزة، ما إن أعلن الحراس من خلال النفير عن وصول الملك حتى انتبه الحضور وتزاحموا على المكان لرؤية ملكهم وهو يبارز أفضل الفرسان.
لم أشك لحظة في أن أبي سيتفوق على منافسه، جلست في مقعدي أشاهد أبي وهو يتجه إلى منتصف الساحة، توقف الاثنان أبي و"مهاب" أمام بعضهما البعض ورفعا سيفيهما لأعلى، ثم بدأت الجولة الأولى، بعد فترة من الصد والرد والتقدم والتراجع من أبي و"مهاب "، انتهت الجولة بتقدم أبي.....
بدأت الجولة الثانية بعد استراحة قصيرة، وقف المتنافسان وجها لوجه في ساحة المبارزة وما إن رفع أبي سيفه لأعلى حتى رفع "مهاب" سيفه لأعلى ثم خفضه ثم رفعه ثانية حتى أصبح في مستوى كتفيه وأمسك

بيده اليمنى بمقبض السيف وبيده اليسرى طرفه، خفض أبي سيفه وقال:

. ماذا تريد؟

ـ عفوًا مولاي أريد أن أستأذن مولاي الملك أن أبارز بكامل طاقتي! فأنا حتى هذه اللحظة مولاي أخشى أن أبارز بما أوتيت من قوة.

. وما الذي منعك؟

. لا تواتيني الجرأة على أن أتحدى مولاي الملك دون أن أطلب الإذن أولا، ثم الأمان.

كلام الملوك لا يرد!

. أعطيك الإذن بأن تبارزني بكل قوتك، وأعطيك الأمان.

كان "مهاب" مازال ممسكًا بالسيف بكلتا يديه حتى هذه اللحظة، ولكن ما إن حصل على الإذن الملكى حتى تحول إلى مقاتل شرس، تراجع قليلا للوراء ثم تقدم في اتجاه أبي محاولا التفوق عليه.

ظل الموقف سجالاً بينهما في هذه الجولة حتى استطاع "مهاب" أن يستغل سرعة رد فعله وخفته في أن يهزم أبي في الجولة الثانية.

طوال الاستراحة ما بين الجولة الثانية والأخيرة وأبي يفكر في كيفية هزيمة هذا المبارز الموهوب القادم من أطراف المملكة ولا أحد يعرف عنه شيئا.

انتهت الاستراحة سريعًا وعاد كلاهما إلى الساحة.

رفعا كلاهما السيفين لأعلى ثم بدأت المبارزة سريعا وبقوة، تارة أشعر أن أبي سيهزمه، وتارة أخرى أجد "مهاب" متفوقا.

تراجع أبي خطوة للخلف، ظن "مهاب" أن أبي سيكمل تراجعه للخلف فتقدم خطوة للأمام وهم بأن يسدد لأبي الضربة الأخيرة، تفادى أبي ضربته، ثم تقدم خطوة وأخرى وهو رافع سيفه لأعلى، تعثرت قدم أبي في حجر صغير على الأرض، اختل توازنه، كانت هذه فرصة "مهاب" لينتصر على أبي، قفز "مهاب" في الهواء، ثم نظر لأعلى، هبط على الأرض، ثم تدحرج بسرعة حتى أصبح في مواجهة أبي، ظننا جميعًا أنه سيسدد الضربة الأخيرة لأبي وبعدها يعلن انتصاره، لكن ياللعجب، توقف ثم أعطى أبي ظهره، ثم سقط على الأرض. ولكن ما هذا؟

إنه مصاب في كتفه من سهم أصابه من أعلى.

قام أبي بسرعة من على الأرض وأمسك بالسهم الذي أصاب "مهاب" وقال بصوت جهوري:

خيانة.... خيانة....

طوق الحراس المكان الذي انطلق منه السهم، واستطاعوا القبض على من رشقه، نزع أبي السهم من كتف "مهاب" بسرعة ونقله الحراس إلى الطبيب الملكي الذي قال لأبي:

- لقد أنقذت حياته، بعد أن أنقذ هو حياتك، لقد أخرجت السهم من كتفه في الوقت المناسب، لو تأخرت قليلا للقي حتفه مولاي.

- أحمد "القدير" على أنه نجانا نحن الاثنين، وبعد أن استعاد "مهاب" عافيته، اتخذه أبي حارسا له لا يفارقه إلا أثناء نومه.

❊ ❊ ❊

رد المظالم

ما إن أبلغتني كبيرة الوصيفات برغبة أبي في رؤيتي، حتى نهضت بسرعة من فراشي، وضعت العباءة على كتفي وانتعلت حذاءً خفيفا وسرت بخطوات سريعة خارج جناحي إلى جناح أبي حينما رآني الحاجبان آتية في البهو فتحا الباب بسرعة حتى قبل أن أصل إليه.

دخلت مهرولة إلى حجرة نوم أبي، فوجدته مستيقظا كعادته، مستلقيًا على فراشه يقرأ بعض التقارير التى وردت إليه في الصباح عن الحالة العامة في المملكة.

ألقى بما كان في يده جانبا ثم فتح ذراعيه عن آخرهما كي يحتضنني.

ألقيت بنفسي على صدره كما تعودت أن أفعل وأنا طفلة صغيرة، طوقني بذراعيه ثم ادعى أنه لا يستطيع إعادتهما إلى ما كانا عليه قبل أن يحتضنني وأخذ يضحك وأنا أحاول الفكاك منه.

. دعك يا أبتِ من هذه الحيلة القديمة وقل لي:

لماذا أراك متجهما هذا الصباح؟

ربت بيديه على ظهري وقال:

. صباح شريف سمو الأميرة "علياء."

ـ صباح الخير يا أبت، لمحت علامات التجهم على وجهك وأنت تقرأ في هذه الأوراق.

. اجلسي يا بنيتي إلى جانبي، ثم أفسح لي مكان وقال:

هى نفس التقارير التي تردني كل يوم عن حال الناس في المملكة، لم يتغير فيها شيء، ويُخيل إليّ أنهم كتبوها كما كتبوا سابقتها دون أن يتابعوا بأنفسهم ما يحدث على الأرض، لذلك عليّ أن أتيقن بنفسي مما كتبوه لي في هذه الأوراق، لذلك عقدت العزم على أن أتنكر في ثياب العامة في الإمارة وأتحدث إلى التجار والفلاحين والعمال لأقف على حال الرعية واستمع إلى شكواهم ومظالمهم، ولكي أرد إلى المظلوم منهم حقه.

لا يجب يا بنيتي أن أعتمد كثيرا على ما يردني من تقارير عن حال الناس في المملكة، عليّ أن أتيقن من صدقها بنفسي.

جمع أبي الأوراق المبعثرة إلى جانبه وأعطاها لي قائلا :

. اقرئيها بنفسك جيدًا وإن وجدت فيها جديدًا، أبلغيني.

. سمعا وطاعة يا أبتي، بمجرد أن تعود من جولتك ستجدني قد أتممت المهمة.

. أرجوك يا أبتي أن تأخذ حذرك، أخشى عليك كثيرًا من هذه الجولات، فأنت تتحرك وسط العامة دون موكب لا يقف إلى جانبك سوى حارسك الشخصي " مهاب" ورغم أنك تخفي شخصيتك وتتنكر بإبداع إلا أن خوفي عليك يجعلني أرتعد وأظل هكذا حتى تعود.

. أعرف يا بنيتي، إصابة رئيس شرطة المملكة بسهم مسموم منذ بضعة أشهر جعلني لا أثق كثيرا فيما يكتبونه عن أحوال الناس، فلم تعرف المملكة طوال عقود سلسلة المؤامرات والدسائس التي رأيتها مؤخرًا وانتهت بمقتل رئيس الشرطة.

. أستحلفك بالقدير يا أبتي أن تأخذ حذرك...

ـ لن أرتدي ملابس الملوك بل أرق الثياب وأبسطها، سأغدو بين الناس في السوق لأنصت للغة الخطاب حتى أطمئن على رعيتي وأقيهم شر الدواب.

تنكر أبي في زي حطاب.

ارتدى سروالا قصيرًا بني اللون، وربط خصره بحبل، وانتعل حذاء من جلد الماعز، ووضع على رأسه عمامة صغيرة، وأخفى لحيته وشاربه بقطعة من القماش ربط طرفيها بالعمامة.

والحارس "مهاب" ارتدى سروالا أبيض، لطخه باللون الأحمر كي يبدو سروال قصاب، ثم وضع حزامًا به أحجام مختلفة من الخناجر، ثم انتعل حذاءً رقيقا من جلد الماعز.

اقترب أبي من تمثال موضوع أعلى مدفأة في الجهة المقابلة لفراشه وربت على رأسه، تحركت المدفأة قليلا جهة اليسار، كاشفة عن باب صغير خلفها.

تقدم الحارس "مهاب" ودخل من الباب لكي يكتشف أي خطر قد يهدد حياة أبي ثم اتبعه أبي في خفة وسرعة.

❊ ❊ ❊

الملك الحطاب

اعتدلت السيدة العجوز في كرسيها الهزاز ثم أشارت لي بالاقتراب منها، ولما فعلت، قالت

انحنِ أريد ألا يسمعني أحد غيرك.

استجبت لطلبها وأحنيت رأسي قليلا، همست في أذني قائلة:

. لا يعرف بأمر هذا السرداب غير أبي وأنا والحارس "مهاب"

لقد أوصاه أبي بأن يأخذني عبر هذا السرداب إلى خارج المملكة إن حدث له مكروه أو تعرضت المملكة لهجوم من الأعداء.

. ولكن هل حدث هذا سيدتي قبل ذلك؟

ـ نعم يا ولدي، كانت هناك مؤامرة على القصر، ولما علم أبي بها، بادر أعداءه بالهجوم، واستطاع القضاء عليهم قبل أن يفتكوا بنا.

حملني مهاب بسرعة إلى داخل السرداب وهو يجري ممسكًا بشعلة من النار بيده الأخرى ليضيء بها طريقه في السرداب إلى أن وصلنا إلى خارج القلعة.

فتحت السيدة العجوز عينيها ثم عاودت النظر من الشرفة إلى الطريق المؤدي إلى أسوار القلعة، كأنما تذكرت أنها ربما أغمضت عينيها لفترة طويلة وعليها أن تفتحهما لتراقب السور وأبواب القلعة ثم أغمضت عينيها مرة أخرى وقالت:

يقام السوق مرة واحدة في الأسبوع. ثم أعادت رأسها للوراء قليلا وهي مغمضة العينين، كانت تبدو وكأنها تسترجع ذكريات الماضي.

أشارت بإصبعها في اتجاه الأسوار وقالت:

ـ كان يأتي التجار من كل مكان داخل القلعة ومن خارجها ويبدأون في الليلة السابقة لإقامة السوق في إحضار بضاعتهم ووضعها في أماكنها تمهيدًا لعرضها في صباح اليوم التالي.

في البداية كان السوق مقصورًا على التجار من داخل القلعة، ولكن أبي أمر أن تفتح أبواب القلعة يومًا واحدًا في الأسبوع هو يوم إقامة السوق لتنشيط حركة البيع والشراء بين مملكتنا والممالك المجاورة ولتلبية احتياجات الناس، فإمارتنا محدودة الإمكانات ولا يستطيع تجار القلعة تلبية كافة احتياجات العامة.

ربما كانت أوامر أبي بفتح أبواب القلعة للتجار القادمين من الممالك المجاورة هي أحد أخطائه القليلة، فقد اندس بين التجار القادمين من خارج القلعة، الخونة، والجواسيس، والعملاء، والمأجورين، وعيون الممالك المجاورة.

وهذا ما يفسر تزايد المؤامرات والدسائس في الفترة الأخيرة.

لم يستغرق الملك وحارسه في الوصول إلى السوق عبر السرداب إلا وقتا قصيرًا.

خرج الحارس أولا بملابس القصاب ثم نظر ناحية اليمين واليسار بتفحص وحذر ثم التفت إلى والدي وقال:

. تفضل مولاي.

سار الملك وحارسه في اتجاه السوق، كانا يسيران جنبا إلى جنب .

ما إن توقف الملك عن السير، حتى توقف حارسه الذي كان دائم الالتفات والنظر ناحية اليمين مرة ثم ناحية اليسار مرة أخرى، وفي أحيان كثيرة كان ينظر لأعلى، لرؤية أي حركة مريبة تهدف إلى إيذاء الملك.

ما إن وصلا إلى السوق حتى توقفا أمام حانوت صغير لبيع الأخشاب، ووجد فيه شيخا جالسًا لا يكاد يقوى على الوقوف إلا متكئا على عصاه، تحرك الشيخ بصعوبة متجها إليهما وقال:

. بماذا يأمر سيدي؟

بادره الملك بسؤال، أأنت الحطاب الوحيد في هذه القلعة؟

. نعم سيدي!

ولكنك طاعن في السن، وهذا العمل يحتاج إلى جهد الشباب....

ـ لست أنا يا سيدي من يقوم بقطع الأشجار، بل ولدي، يذهب إلى أطراف القلعة ثم يقتطع الأشجار ويعود حاملا إياها، ثم أقوم أنا بعرضها في السوق.

. ولكن أين هو؟

خرج منذ الصباح الباكر لاصطياد الظباء.

. وما اسم ولدك؟

"شهاب" سيدي.

. ولكن لمَ كل هذه الأسئلة؟

تجاهل الملك استفسار الشيخ وقال:

ـ حقا إن اسمه جميل، لقد أحسنت اختيار اسم ولدك، ولكن متى سيعود؟

. إنه يخرج كل يوم في الصباح الباكر ويعود مع غروب الشمس حاملا ما يصطاده من الظباء والأرانب البرية وما يقتطعه من أشجار الغابة.

وضع الملك يده في جيب سرواله ثم أخرج قطعة نقود ذهبية، أعطاها للحطاب الذي تناولها ثم أخذ يحدق فيها وعلامات الدهشة تبدو على وجهه.

. سيدي لم أفعل شيئا لكي أتلقى أجرًا !

. بل فعلت الكثير، أحسنت تربية ولدك.

شعر الملك بأن الحطاب على استعداد للكلام لمّا رآه سعيدًا بقطعة النقود الذهبية فسأله عن أحوال الرعية في المملكة.

اقترب الحطاب من الملك ونهره بحدة وقال آمرًا:

ـ اخفض صوتك يا رجل، الحراس يجوبون المكان، قد يلقون القبض عليك إن سمعوك تسأل عن أحوال الناس.

يا سيدي، الناس يعانون من شظف العيش، لقد تردت الأحوال المعيشية لهم منذ فترة ليست بالقليلة.

هؤلاء الحراس الذين تراهم منتشرين هنا وهناك، ليست مهمتهم حراستنا كما يدعون، بل لكي يلقوا القبض على كل من تسول له نفسه بالشكوى مما يعانيه.

. وهل لديك دليل على ما تقول؟

. أعرف الكثير ممن ألقوا القبض عليهم سيدي.

بينما الملك يستمع بإنصات لكلام الحطاب، رأى طفلا صغير السن يجري في السوق حافي القدمين، يطارده ثلاثة أولاد أكبر منه سنا، محاولين الإمساك به وهو يجري بسرعة مراوغا إياهم، وعلامات الخوف تبدو

واضحة على ملامح وجهه، استطاع الأولاد الإمساك به وطرحه أرضًا وحاولوا أخذ ما بيده.

أشار الملك لـ "مهاب" بالتدخل لإنقاذ الطفل من أيديهم.

أسرع "مهاب" ووضع جسده حاجزا بين الأولاد وبين الطفل وقال:

. انصرفوا وإلا سأبلغ الحراس.

اندفع أحد الأولاد في اتجاه الطفل يحاول أخذ ما بيده قائلا بصوت مرتفع:

أتدافع عن سارق؟! هذا الغلام خطف قطعة من النقود من محل أبي ولاذ بالفرار، ونحن نريد أن نستعيدها منه ونلقنه درسًا حتى لا يمد يده مرة أخرى على مال غيره.

اقترب الملك من الغلام وسأله:

. هل حقا ما يقولونه؟ أأنت سرقت مالهم؟

نظر الغلام إلى الأولاد وقال:

. أنا جائع، ولا يوجد في دارنا شيء نستطيع أن نسد به رمقنا، أبي مريض وأمي لا تعمل، وإخوتي جوعى في الدار، سيدي.

. وأين داركم يا بني؟

. إنه ليس ببعيد.

مد الملك يده إلى الغلام وأخذ قطعة النقود منه وأعطاها للأولاد وأمرهم بالانصراف، رفع الغلام من على الأرض بلطف وقال له:

. أرشدني إلى داركم يا ولدي.

تقدم الغلام الملك و"مهاب" في السير وهو يوجههم في اتجاه داره بإشارات يديه، ويتحدث بصوت مرتفع قليلا وهويستعطف الملك:

. أرجوك سيدي لا تقل لأبي أو لأمي بأنني حاولت سرقة النقود.
. لا تخشَ شيئا يا بني.
. حسنًا سيدي سنعبر هذا الزقاق ثم سنجد دارنا في الجانب المواجه.
ما إن وصل الملك والغلام و"مهاب" إلى الدار حتى ترك الغلام يد الملك وأسرع بالجري إلى داخل الدار وقال بصوت مرتفع:
. أبي.. أمي... هناك رجلان بالخارج يسألان عنكما.
تقدم الملك في هدوء ودخل الدار وهو يتلفت حوله في المكان، يريد أن يستوثق من كلام الغلام، عما يعانونه من شظف العيش.
أشار الملك بالاقتراب، وقال له:
ـ أسرع إلى السوق واشترِ على وجه السرعة أجولة من الدقيق والقمح والزيت.
. سمعا وطاعة مولاي.
خرج والد الغلام وقال: . من أنت؟ وماذا تريد منا؟
. أرسلني كبير التجار لأقضي لكم حاجاتكم.
. عفوًا سيدي هل علم كبير التجار بما نحن فيه، وملكنا يعيش في قصره لا يعلم عنا شيئا!
ـ لقد أرسلت ولدي هذا إلى قصر الملك مرات ومرات، لكي يشكو له من ضيق حالنا، ولما اقترب من القصر نهره الحراس وقالوا إنهم سيلقون القبض عليه إن اقترب ثانية.
ولما أعوزتنا الحاجة، ذهب إلى القصر ثانية، فألقوا القبض عليه وأحضروه إلى هنا وهددونا بالقتل إن حاولنا إبلاغ الملك بما نعيش فيه من عوز سيدي.

ـ نشكرك كثيرا سيدي على حسن صنع جميلك هذا، هل لي أن أحملك برسالة إلى كبير التجار فهو يلتقي ومولاي الملك كثيرًا، اشكره أولا نيابة عنا، وأبلغه أن يقول للملك أننا أولى بالرعاية من كثيرين ممن حوله !

طرق "مهاب" الباب ودخل إلى الدار وبصحبته غلامان يحملان ما طلبه الملك ثم انصرفا في هدوء.

نظر الرجل المريض إلى الملك وقال:

ـ لا تنسَ رسالتي، نحن أحق بالرعاية من كثيرين ممن حول الملك.

خرج الملك بسرعة من الدار ومن خلفه "مهاب" وهو يدرك إلى حد اليقين صدق حدسه.

إن التقارير التي تصله كل يوم لا تعبر بأي حال عن أحوال الرعية، وعليه أن يتحرك بسرعة ليتدارك أخطاء مستشاريه.

وما إن عاد إلى القصر هو و"مهاب"، حتى طلبني في جناحه.

أسرعت إليه يا ولدي، وما إن دخلت غرفته حتى قال:

ـ لقد تيقنت بنفسي من صدق حدسي يا بنيتي، الناس تضج بالشكوى ولكنهم لا يستطيعون أن يجاهروا بها خوفا من الحراس .

اكتبي أمر استدعاء لكبار مستشاريّ في الحال.

خرجت الأميرة "علياء" من جناح أبيها وتوجهت إلى غرفتها، وأمسكت ريشة وكتبت ثلاث رسائل بصيغة واحدة "عليك الحضور إلى القصر للقاء جلالة الملك فور تلقيك هذه الرسالة"

ثم قامت الأميرة "علياء" بختم كل رسالة بخاتم الملك، ثم استدعت ثلاثة فرسان، وحمّلت كل واحد منهم برسالة إلى مستشاري الملك.

ما إن وصلت الرسائل إلى مبتغاها حتى أسرع المستشارون بالحضور.

التقى ثلاثتهم في غرفة الاجتماعات الرئيسية في انتظار حضور الملك من جناحه وكل منهم ينظر للآخر.

محاولا أن يستشف منه ما حدث، دون أن يتحدث إلى الآخرين، وأخيرًا قال أحدهم:

. لم يستدعِنا الملك منذ فترة طويلة بهذا الشكل، يبدو أن في الأمر شيئا، أيعرف أحدكما ماذا حدث؟

رد آخر: لقد وصلتني نفس الرسالة التي وصلتك.

وقال الثالث: بالتأكيد الحدث جلل.

وما إن أتم ما قال حتى فتح الملك الباب ودخل عليهم وهو متجهم قائلا : وقف الثلاثة بسرعة، ثم انحنوا جميعا خوفا واحتراما لملكهم، جلس أولا ثم دعاهم للجلوس.

بدأ الملك حديثه بالسؤال عن حال الرعية.

. بخير مولاي، يدعون لك بطول البقاء.

. هل قمتم بتوزيع المعونة التي يخصصها القصر من قمح وشعير ودقيق على الفقراء والمرضى وذوي الحاجات؟

رد الثلاثة في نفس الوقت: نعم مولانا الملك.

. من الذي يقوم بتوزيع تلك المعونة؟

. القائمون على مخازن الغلال.

. حملتكم مسئولية، أعلم أنها ثقيلة للغاية وهي متابعة أحوال الرعية، الأخبار التي تصلني منكم كل صباح تؤكد بأن كل شيء على ما يرام وأن الناس يعيشون في رغد، وأن المعونة التي يصرفها القصر للفقراء تكفيهم بل وتزيد، لقد تيقنت بأن الحقيقة مخالفة تمامًا.

. إما أنكم لا تباشرون عملية التوزيع على الفقراء والمحتاجين، وإما أنكم لا تقومون بعملية التوزيع من الأصل وفي كلتا الحالتين أنتم مذنبون.

قال أحدهم:

. عفوًا مولاي، ولكن المخزون من الدقيق والقمح والشعير وغيره لا يكفي حاجة الناس، لذلك قمنا بتخفيض الكمية.

ـ إذن عليكم مضاعفة الجهد لتعويض الناس عما أصابهم في الفترة الماضية.

قال ثلاثتهم:

. سمعا وطاعة مولانا.

قام الملك بسرعة، ثم اتجه مباشرة إلى الخارج.

تأكد بما لا يدع مجالا للشك بأن مستشاريه لم يعودوا صالحين لأداء المهمة التى أوكلها إليهم لقد أعطاهم الفرصة الأخيرة في اجتماعه بهم، ولكنهم لم يبذلوا أي مجهود في التفكير أو البحث عن حلول لتزايد أعداد الفقراء والمحتاجين إلا باقتطاع أجزاء من المعونة التي يقدمها القصر لهم.

ما إن انصرفوا خارجين من غرفة الاجتماعات حتى أمسك الملك بورقة وريشة وكتب.

"يتم عزل المستشارين الثلاثة من مناصبهم لأسباب كثر، وعلى رأسها أنهم قاموا بتضليل الملك بأخبار وهمية وغير صادقة عن أحوال الرعية"

❊ ❊ ❊

أنا والذئب

اعتدلت السيدة العجوز في جلستها على الكرسي الهزاز ونظرت إليّ نظرة خاطفة، وقالت:

اعتاد الملك وأصدقاؤه من الأمراء والنبلاء على الخروج للصيد كل فترة.

دائما ما كان والدي يصحبني في رحلات الصيد هذه.

في ذالك اليوم انطلقت الخيول تعدو على المروج الخضراء ومن ورائها تجرى كلاب الصيد، تحاول اللحاق بها.

كان أبي يتقدم بفرسه الملقب ب"الأكثم" ومن ورائه الأصدقاء، وكنت أنا أجلس في العربة الملكية التي تجرها الخيول البيضاء، وإلى جانبي تجلس كبيرة وصيفاتي وخادمتي "سمراء"

عندما اقترب الركب من بحيرة مليئة بالماء، رفع الملك يده اليمنى في إشارة إلى الفرسان بالتوقف في هذا المكان.

صاح خادم الملك للحراس قائلا :

"انصبوا الخيام استعدادًا للمساء

أطلقوا الخيول ترعى في العراء

سنبدأ في الصباح البحث عن الظباء"

طلبت من خادمتي وكبيرة وصيفاتي الذهاب إلى البحيرة القريبة من المكان لألقي نظرة على سقوط المياه من أعلى الجبل.

واصلنا ثلاثتنا السير ونحن ننظر حولنا في كل اتجاه لنمتع أعيننا بالمناظر الخلابة.

وصلنا إلى بحيرة صغيرة تحوطها التلال من ثلاثة اتجاهات، ومن أحد هذه التلال تسقط المياه إلى البحيرة محدثة خريرًا يشبه نغمات الموسيقي.

تطاير رذاذ الماء وهو يسقط من أعلى التل إلى البحيرة على وجوهنا وملابسنا.

قلت لهن:

. سأنزل إلى البحيرة، أريد أن ألهو بالماء، فمن منكن ستصحبني؟

اعتذرت كبيرة وصيفاتي عن النزول وقالت:

. عفوا مولاتي، لقد ابتلت ملابسي بالكامل، سأجلس هنا.

جلست كبيرة وصيفاتي على الرمال وأنا ألهو مع خادمتي "سمراء" في مياه البحيرة،

ومن بين الأشجار كانت تراقبنا عيون في الخفاء.

اندفع ذئب بسرعة البرق يعدو في اتجاه كبيرة وصيفاتي وهي جالسة في هدوء ترسم بأصابعها خطوطا متشابكة على الرمال وهي تنظر في اتجاهي أنا وخادمتي "سمراء."

أتى الذئب في خفة وسرعة من وراء ظهرها، ثم انقض عليها وأطبق بفكيه على عنقها بقوة، صرخت أنا و"سمراء" صرخة مدوية هز صداها الأرجاء.

ظل الذئب مطبقًا بفكيه على عنق كبيرة وصيفاتي وهي تحاول النجاة بيأس من فكيه بتحريك يديها وأرجلها ناحية اليمين والشمال، والدماء تسيل من عنقها.

ظلت على هذا الحال، إلى أن لفظت أنفاسها الأخيرة.

ما إن صرع الذئب كبيرة وصيفاتي، حتى التفت إلينا، نظر إليّ بعيون حمراء وفمه مغطى بالدماء، في هذه اللحظة أدركت ما أنا فيه من عظيم ابتلاء.

وضعت يدي على وجهي وأنا أتراجع خطوة وراء أخرى للوراء.

ظل الذئب يتقدم نحوي ببطء وأنا أتراجع ببطء في اتجاه البحيرة وإلى جانبي خادمتي "سمراء"

لم يكن معنا شيء لندافع به عن أنفسنا، نظرت على يميني وعلى شمالي بحذر، علني أجد فرع شجرة كي أمسك به وأرفعه في الهواء، لعل الذئب يشعر بالخوف ويتراجع، ولكني لم أجد.

كلما تراجعت للخلف ازداد تقدم الذئب العنيد نحوي كاشفا عن أنيابه.

لقد شعرت يا ولدي أن هذه نهايتي.

فكرت بسرعة أن أنحني ببطء وأمسك بحفنة من الرمال في يدي ثم أقذفه بها وهو يتقدم نحوي ببطء ثم أستدير بسرعة وأنزل إلى البحيرة التي تبعد عني خطوات ولكن ما يدريني إن أعطيته ظهري وجريت نحو البحيرة أنه لن يجري ورائي ويفعل بي ما فعله بكبيرة وصيفاتي؟

كانت جاريتي "سمراء" ترتعد من الخوف، وتصرخ بطريقة هستيرية في محاولة لاستدعاء الحراس المرافقين لأبي.

تذكرت في هذه اللحظة ما قاله لي أبي وهو يعلمني وأنا صغيرة فنون المبارزة بالسيف، لا تعطي ظهرك لمن تخافين منه، فلن تأمني شره، دافعي عن نفسك وأنت تنظرين في عينيه .

في هذه اللحظة إذا بفتى يخرج من بين الأشجار ويندفع بقوة وسرعة وبيده رمح، يبدو وكأنه يصطاد به الظباء.

وقف بيني وبين الذئب ملوحًا برمحه في الهواء.

تقدم الذئب نحوه ينوي عليه القضاء، رفع الفتى الرمح لأعلى معلنا أنه سيصوبه في اتجاه الذئب العنيد ثم رماه بأقصى قوته....

رشاقة الذئب حالت دون إصابته.

سقط الرمح على الرمال مؤكدا فشلنا في مواجهته، وبنفس رشاقته في تجنب الرمح كانت رشاقته في القفز لأعلى في اتجاه الفتى.

بينما هو طائر في الهواء، استطاع الفتى أن يلكمه بقبضة يده في جانبه الأيمن، وبيده الأخرى استطاع أن يحول بين أن يطبق الذئب بفمه على عنقه.

رشاقة الذئب مكنته من أن يمسك بكتف الفتى ويهوي به على الأرض.

أصيب الفتى بالإغماء من أثر السقوط.

غرس الذئب أنيابه بقوة في كتف الفتى المُسجى على الرمال وبدأ يسحبه إلى الوراء وأنا أصرخ بأعلى صوتي طالبة النجدة من أبي.

في هذه الأثناء كان الحراس مشغولين مع الخدم في تجهيز الخيام للمبيت في المكان، والنبلاء يستبقون بالخيل، في محاولة منهم لإظهار قدراتهم في ركوب الخيل، والأميرات يمشين بخيلاء في مجموعات صغيرة وهن يرتدين سراويل مزركشة كأنهن في حفل عرس على أنغام الطبيعة

الساحرة والمروج الخضراء، وأولاد الأمراء من الشباب يتدربون على فنون المبارزة بالسيف وآخرون يطلقون السهام في اتجاه هدف اختاروه بعناية، والأطفال يلهون مع كلاب الصيد المنتشرة بالمكان، والخدم يقومون بتجهيز أدوات الشواء لإعداد الولائم بعد انتهاء عملية الصيد.

بعد أن دوت صرختي الأولى لما رأيت الذئب يعدو في اتجاه كبيرة وصيفاتي، انتبه أبي إلى صوت الصراخ بينما كان يتجول بفرسه في المكان.

سأل حارسه "مهاب":

. أين الأميرة "علياء"؟ يُخيل إليّ أني سمعت صوت استغاثة آت من مكان قريب.

ـ إنها تلهو في البحيرة بالماء مولاي الملك، ومعها خادمتها "سمراء" وكبيرة وصيفاتها.

ومع اقتراب الذئب، ومحاولته النيل مني وصراخ خادمتي "سمراء"، انتبه أبي وأسرع يعدو بفرسه في اتجاه البحيرة ومن ورائه حارسه "مهاب"، في اللحظة التى كان الذئب يحاول فيها سحب الفتى المُسجى على الرمال بين الأشجار الكثيفة المحيطة بالبحيرة.

سحب "مهاب " سهمًا من الجراب المعلق خلف ظهره وصوبه بعناية وقوة في اتجاه الذئب، فأصابه في جانبه الأيمن واخترقه إلى أن خرج جزء منه من الجانب الأيسر، فسقط صريعًا في الحال.

صرخت بأعلى صوتي أبي... أبي.... وأسرعت أعدو في اتجاهه.

ترجل أبي من على فرسه وفتح ذراعيه عن آخرهما، ارتميت في أحضانه وأنا أبكي وأرتعد من هول ما رأيت.

.لقد قتل الذئب كبيرة وصيفاتي يا أبتي وكاد أن يفتك بي!!!
احتضنني أبي بقوة وربت على رأسي ثم وضع إصبعه تحت ذقني ورفع رأسي لأعلى ونظر في عيني وقال:
.تعالي معي لنرى من ذاك الفتى المُسجى على الرمال.
سبقنا "مهاب" إلى حيث سقط الذئب صريعًا ليتأكد من موته.
انحنى ثم جثا على ركبتيه مُتفحصًا الفتى الملقى على الأرض وكتفه ينزف الدماء بغزارة وقال :
سيدي.. ما زال حيًا!
كان الفتى غارقا في دمائه، لقد نزف الكثير منها وأصبحت حياته في خطر شديد.

❊ ❊ ❊

فتى الفتيان

حينما رأى الأمراء والنبلاء الملك وهو يعدو بفرسه في اتجاه البحيرة، أسرعوا خلفه في محاولة منهم لمعرفة السبب.

كانت كبيرة وصيفاتي ملقاة على الرمال، غارقة في دمائها دون حراك والذئب ملقى على جانبه الأيمن مصابًا بسهم، وإلى جانبه يرقد فتى فاقدًا الوعي وكتفه ينزف الدماء ولكنه مازال يتنفس بصعوبة !

نظر الملك بعطف وشفقة إلى الفتى وقال:

. أرسلوا في طلب كبير الأطباء من القصر في الحال.

قال أحد الأمراء:

. عفوًا جلالة الملك، سيستغرق ذلك وقتا طويلاً.

وقال آخر:

. جرح الفتى غائر مولاي، وبالتأكيد سينزف الكثير من الدماء خلال الفترة التي سننتظر فيها قدوم الطبيب.

وقال ثالث:

. الراجح مولاي، أن نحمله إلى القصر بسرعة ولكن علينا أولا أن نكوي جرحه لنمنع نزيف الدماء، ولكن من منا يستطيع القيام بذلك، سيتألم الفتى كثيرًا من ذلك ولكنها ستكون محاولة لإنقاذ حياته.

رفع "مهاب" رأسه لأعلى مخاطبًا الملك وقال:

. مولاي أستطيع أنا أن أفعل ذلك، سوف أقوم بوضع نصل خنجري في النار ثم أمرره على الجرح الغائر في كتف الفتى وأتمنى أن أفلح في وقف نزيف الدماء.

قال الملك:

. ألن يؤلمه ذلك؟

. عفوا مولاي، فهو فاقد الوعي ولن يشعر بشيء.

أسرع الخدم بجمع فروع الأشجار الرقيقة وأشعلوا فيها النار.

أخرج "مهاب" خنجره من غمده ثم قام بوضعه بين أفرع الأشجار المشتعلة حتى احمر نصله، ثم استدار إلى الفتى وقام بتمرير نصل الخنجر على جرحه، ثم حمله إلى العربة الملكية برفق.

قال الملك مخاطبًا الحراس:

. عليكم مرافقة العربة الملكية وحراستها إلى أن تبلغ القصر.

ثم التفت إلى كبير الحراس وسأله:

. من هو أسرع فارس لدينا؟

"رماح" مولاي.

. إئتوا به في الحال، أخشى على هذا الفتى الشجاع من الهلاك، لقد نزف كثيرًا من الدماء، وأظهر شجاعة نادرة وأنقذ الأميرة "علياء" من الفناء.

ولما مثُل الفارس "رماح" أمام الملك، انحنى له وقال:

. أمر مولاي.

ـ عليك بلوغ القصر بأسرع ما يمكنك وإبلاغ كبير الأطباء أن في الطريق إليه فتى جريح، أمره يشغل بال الملك، عليه أن يبذل أقصى طاقة له في العناية به.

انطلق الفارس "رماح" يسابق الريح تنفيذا لأمر الملك، ولما وصل إلى القصر ترجل عن فرسه وصعد درجات السلم المؤدية للهو بسرعة، وقال للحراس:

. أحمل رسالة شفهية من مولاي الملك لكبير الأطباء.

اصطحب حراس القصر الفارس "رماح" لغرفة كبير الأطباء.

طرق قائد الحرس على الباب وقال:

. عفوا سيدي، رسول يحمل رسالة شفهية من جلالة الملك.

فتح كبير الأطباء باب غرفته وقال:

. أين هو؟

تنحى قائد الحرس جانبا ثم أشار للفارس "رماح" الواقف خلفه وقال:

. هو ذا سيدي.

بدت على وجه كبير الأطباء علامات القلق والجذع ووجه سؤاله لـ "رماح"

. خيرا بني، هات ما عندك، هل حدث لمولاي الملك مكروه؟

. لا سيدي، في الطريق إلى هنا فتى جريح، أمره يشغل بال الملك، مصاب في كتفه من أثر هجوم ذئب، نزف الكثير من الدماء، وقام حارس الملك "مهاب" بكي جرحه لوقف النزيف إلا أن محاولاته باءت بالفشل، ما زال جرحه ينزف سيدي، وقد أمرني مولاي الملك بالحضور إليك على جناح السرعة لتجهيز ما يحتاجه الفتى من أدوية وأعشاب.

. ومتى سيأتي؟

. إنه قادم في الطريق سيدي.

أثارت كلمات الفارس "رماح" اهتمام كبير الأطباء، عاد للوراء عدة خطوات وقال وهو يتجه إلى خزانة مليئة بقوارير متفاوتة الأحجام:

ـ اتبعاني، لا وقت لدينا، ثم فتح الخزانة وتناول مجموعة من القوارير وأعطاها للفارس "رماح" وكبير الحراس وقال:

. سنضع الفتى في الحجرة المجاورة، أريده أن يكون قريبًا مني.

خرج كبير الأطباء مسرعًا من غرفته متوجها إلى الغرفة المجاورة والتي يقوم فيها بإجراء تجاربه من خلط الأعشاب بعضها ببعض، ومن ورائه الفارس "رماح" وكبير الحراس، ولما دخلها قال لهما:

ـ اسحبا هذه المنضدة إلى منتصف الغرفة واجمعا ما عليها من أوراق وكتب، ثم أحضر قطعة من القماش وسكب كمية كبيرة من النبيذ على المنضدة وقال لكبير الحراس:

امسح هذه المنضدة، لا نريد لجراح الفتى أن تتلوث، فتزداد الأمور تعقيدا.

❊ ❊ ❊

العائد من فناء

استدارت السيدة العجوز إليّ وقالت:

. علت الدهشة وجه أبي حينما طلبت منه مرافقة الفتى خلال رحلته إلى القصر وكانت حجتي أنه أنقذ حياتي وأريد أن أرد له الجميل.

كان الفتى يئن بصوت مكتوم وهو مُسجى على الرمال، رفعه "مهاب" ثم وضعه في الكابينة الخلفية للعربة الملكية، أشرت لخادمتي "سمراء" بالدخول واتبعتها، وضعت رأسه على قدمي بعد أن جلست إلى جانبه وهو فاقد الوعي .

سألت نفسي:

. ما الذي دفع به لتحمل كل هذا العناء؟

كاد أن يدفع حياته ثمنا لهذه الشجاعة!

أمعنت النظر إليه طوال الرحلة وأنا أضع يدي على كتفه في محاولة لمنع نزيف الدماء.

شعره بني وبشرته سمراء

عريض الجبهة وعيون زرقاء

متناسق الجسم طويل البناء

خصره مغطى بجلد نمر وكتفه بجلود الظباء

يحمل على ظهره جرابًا مصنوعًا من جلد حرباء

به سهام مصنوعة من عظام ثعالب الصحراء

يبدو وكأنه فتى الفتيان كما جاء في كتب العظماء.

لما وصلت العربة الملكية إلى باب القصر، وجدت في انتظارنا كبير الأطباء وإلى جانبه الفارس "رماح" وكبير الخدم والوصيفات.

كانت تبدو على وجوه الجميع علامات جزع والخوف والقلق.
اندفعت الوصيفات إلى باب العربة الملكية وفتحنه بسرعة وهن يبكين.
ولما نزلت منها كانت ملابسي ملطخة بدماء الفتى، قالت كبراهن وهي تحتضنني:
ـ نحمد القدير على نجاتك مولاتي الأميرة، لقد قص علينا الفارس "رماح" ما حدث وبما فعله هذا الفتى لإنقاذ حياتك.
أسرع كبير الأطباء لرؤية الفتى وهو مُسجى على ظهره في الكابينة الخلفية للعربة الملكية لكي يتأكد أن الفتى ما زال على قيد الحياة، وضع يده جانب رقبته، ثم قال مخاطبًا الفارس "رماح" وكبير الخدم:
ـ علينا حمله بهدوء وبرفق إلى الغرفة، حالته تبدو غير مطمئنة، الجرح غائر، وبكتفه تهتكات كثيرة.
إن محاولات الذئب لسحبه قد عمقت من جراحه، لقد أبطأ كي الجرح من نزيف الدماء، ولكن لم يوقفها.
أخرج كبير الأطباء والفارس "رماح" وكبير الحراس الفتى من العربة الملكية وحملوه برفق متوجهين إلى غرفة العلاج.
تقدمهم كبير الأطباء وصعد درجات سلم القصر وهو يلتفت إليهم بين لحظة وأخرى ويقول:
أسرعوا ولكن حذارِ أن يلمس أحدكم كتفه المصابة.
ما إن وصل إلى الغرفة حتى فتح أبوابها على مصراعيها وقال:
ـ ادخلوا ثم ضعوه برفق على المنضدة.
ساعدهم كبير الأطباء في وضع الغلام على المنضدة وقال مخطبا الجميع:

ـ علينا أولا غسل أيدينا قبل أن نباشر عملنا في إنقاذ هذا الفتى حتى لا يتلوث جرحه وتسوء حالته.

التفت كبير الأطباء إليّ وهو يقوم بغسل يديه وقال:

ـ تفضلي سمو الأميرة بالجلوس. وهو يشير إلى كرسي هزاز.

ثم استطرد قائلا:

ـ ولكني أفضل أن تتوجهي إلى جناحك للحصول على قسط وافر من الراحة، لقد بذلت مجهودًا كبيرًا خلال الرحلة، وما إن نفرغ من عملنا سوف آتى إليك.

أجبته بسرعة:

ـ لا، أريد أن أشترك في علاجه، لا تنسَ أنه أنقذ حياتي.

أعرب كبير الأطباء عن اندهاشه مما قلت برفع حاجبيه وقال:

ـ كما تشائين، ولكن ربما يطول الوقت وأنا أقف إلى جانبه، في الأغلب سأقوم بخياطة الجرح وعمل ضمادات.

قلت في إصرار: ـ بل سأظل إلى جانبك.

قال كبير الأطباء وهو يلح عليّ للخروج من الغرفة:

ـ أخشى عليك سمو الأميرة من رؤيته وهو يتألم، سوف أبدأ بتنظيف الجرح ثم خياطته.

حينما شعر كبير الأطباء بإصراري على مساعدته في العناية بالفتى، أشار بيديه علامة على الخضوع لطلبي بأن رفع كتفيه لأعلى وهو يقول:

ـ إذن اغسلي يديكِ بهذا، وسكب الكثير من النبيذ على يدي، علينا أولا إزالة جلد النمور من على كتفه برفق، لقد التصق بالجرح وعلينا الحذر

ونحن نزيله، وسأحضر قارورة مملؤة بالنبيذ، وأسكب الكثير منها على الجرح، أعرف سيدتي أنه سيتألم كثيرًا ولذلك علينا أن نتحوط.

وجه حديثه إلى الفارس "رماح" قائلا:

. عليك الإمساك وبقوة يده اليمنى.

ثم أشار إلى كبير الحراس وقال:

عليك أن تقف في الجهة المقابلة وتمسك بيده اليسرى بنفس القوة حتى لا يتحرك فيؤذي نفسه أو يؤذينا.

ما إن بدأ كبير الأطباء في سكب قطرات النبيذ على كتف الفتى حتى علا صراخه، وحاول أن يفلت يديه منهما.

نظر إليّ كبير الأطباء محاولا أن يستشف إن كنت سأستطيع أن أتحمل الانتظار في الغرفة أم لا!!!

وجدني وقد أحنيت رأسي ثم أغمضت عيني .

وضع كبير الأطباء الضمادات على جرح الفتى محاولا إيقاف النزيف، ولما باءت محاولاته بالفشل، نظر إليّ وقال:

ـ سأقوم الآن سمو الأميرة بخياطة الجرح، قد يستغرق ذلك بعض الوقت، هل ما زلت عند رأيك بالوقوف إلى جانبي ومساعدتي؟

. نعم، ولكن هل سيستغرق ذلك وقتا طويلا؟

. ربما سمو الأميرة وآمل أن أنجزه بسرعة.

أنهى كبير الأطباء عمله بخياطة الجرح الغائر في كتف الفتى ثم قال موجها كلامه لي:

. سمو الأميرة، إن بقي الفتى على قيد الحياة إلى الغد، فسيكون قد عاد من فناء، سيدخل الآن في نوبة إغماء، ربما تطول بعض الشيء، سأعطيه الآن محلولا يساعد في تخفيف الألم.

مددت يدي إلى كبير الأطباء وأخذت منه القارورة وقلت:

ـ سأرفع رأسه ببطء لأعلى وأضع القليل من المحلول في فمه، أرجو أن يبتلعه دون أن يؤذي نفسه.

أثار اهتمامي بعلاج الفتى بنفسي اندهاش كبير الأطباء وقال:

ـ سمو الأميرة، لقد أنهينا المهمة بنجاح، عليك أخذ قسط من الراحة، تستطيع خادمتك "سمراء" العناية.....

وقبل أن يكمل كلامه قلت في حدة:

ـ لا، سأعتني به بنفسي، كان من الممكن أن أكون أنا الآن مكانه، لقد دافع عني ببسالة وفداء.

أثار إصراري على الجلوس إلى جانب الفتى ومباشرة العناية به علامات استفهام كثيرة في رأس كبير الأطباء ورغم أن الحجة التي سقتها له لم تقنعه بما أريد إلا أنه رضخ في نهاية الأمر لرغبتي.

ـ حسنا سمو الأميرة، سانصرف الآن لأتابع عملي، أنا أعكف حاليا على استخراج مادة من نبات صغير ينمو بين الأعشاب، كلما أكلته البغال زادت طاقتها على العمل، إن صدق حدسي واستطعت استخراج هذه المادة، سيخفف هذا كثيرًا من آلام المرضى، أغلب الظن سيدتي أنها مادة تساعد على تخدير العضلات.

أبدت الأميرة إعجابها الشديد بما يبذله كبير الأطباء من مجهود وقالت:

. حسنا، سيدي سأخبر أبتي بما تبذله من جهد لتخفيف آلام المرضى.

انصرف كبير الأطباء متوجها إلى غرفة مجاورة قائلا:
. سآخذ قسطا من الراحة قبل أن أستأنف عملي، وسأمر على الفتى بعد ساعة من الآن لأتابع حالته سمو الأميرة.
استدار كبير الأطباء ومشى بضع خطوات نحو باب الغرفة المغلق ثم وضع يده على المزلاج ثم توقف والتفت إليّ وقال:
ـ سيدخل الفتى الآن في نوبة إغماء، ابتسم قليلا ثم أردف قائلا بصوت لا أكاد أسمعه "يبدو أن أمر هذا الفتى لا يهم جلالة الملك وحده، ثم أغلق باب الغرفة خلفه".
أدركت ما يعنيه كلام كبير الأطباء وقلت في نفسي:
نعم، أمر هذا الفتى يهمني، لقد أنقذ حياتي، بفضله الآن أنا أنعم بالحياة، أم أن كبير الأطباء يقصد بكلماته القليلة ما هو أبعد من إحساسي بالجميل؟ ربما، لقد أسرتني شجاعة الفتى وإقدامه، فهو لايعرف من أنا، لم يحاول إنقاذي لأنني الأميرة "علياء"، بل لأنني أقف ضعيفة في مواجهة وحش كاسر، لقد أدرك في تلك اللحظة أني أحتاج إليه فهب لنجدتي بينما هو يحاول إنقاذي كاد أن يدفع حياته ثمنا لهذه الشجاعة النادرة.
اعتدلت السيدة العجوز في جلستها على الكرسي الهزاز وقالت وهي تنظر إليّ: . أتدري يا ولدي، هذه هي الغرفة التي كنت أتابع فيها حالة الفتى وهذا هو الكرسي الهزاز الذي كنت أجلس عليه.
عاودت السيدة النظر من الشرفة إلى الخارج وقالت:
ـ ظللت أنظر إلى وجهه وأتابع حالته، كنت أقوم كل بضع دقائق من مكاني هذا ثم أذهب إليه وأضع يدي على جبهته لكى أطمئن عليه.

لقد قال كبير الأطباء قبل انصرافه من الغرفة "إن حدث أمر غير عادي، أرسلي "سمراء" في طلبي".

مازال الفتى راقدًا في سكون وتبدو على ملامح وجهه الضعف والهزال، لقد نزف كثيرًا ولكني أثق في أنه سيتعافى في القريب، بنيانه القوي سيساعده على الصمود.

عدت مرة أخرى إلى مكاني، جلست على مقعدي ثم عاودت النظر للفتى، لقد أحسست برعشة تسري في جسدي حينما وضعت يدي على جبهته.

بدأت أحدث نفسي وأتساءل عن سر هذه الرعشة التي سرت في جسدي، سر لهفتي على شفائه، خوفي الشديد على حياته، يبدو لي أن كلام كبير الأطباء لي قبل أن يهم بالخروج من الغرفة قد جعلني أنظر بداخلي لأتيقن مما قاله، لا تفسير لهذا الاهتمام سوى أن شجاعة الفتى وإنقاذه لحياتي قد فجر بركان المشاعر الخامدة بداخلي.

أعدت رأسي قليلا إلى الخلف ثم أغمضت عينيّ.

رأيت الفتى قادما نحوي، وهو يرتدي حلة بيضاء، توقف أمامي، ابتسم ثم مد يده لي ثم انحنى قليلا، ابتسمت له ثم أجبت طلبه، مددت له يدي وأنا أقوم من مكاني، أمسك بأطراف أصابعي، ثم انحنى وقبل يدي وقال: . تفضلي سمو الأميرة !

سرت إلى جانبه في القاعة الرئيسية للقصر وأنا أضع يدي على يده، وصلنا إلى منتصف القاعة، فعزفت الفرقة الموسيقية لحنا جميلا، بدأنا نتمايل مرة ناحية اليمين ومرة أخرى ناحية اليسار، كنا ندور حول بعضنا البعض في حركات راقصة، وكان أبي يجلس على كرسي العرش

يراقبني وأنا أرتدي فستان زفاف أبيض، وعلامات السعادة تبدو واضحة على وجهي وفتاي يراقصني.

تسرب إلى أذني صوت آنين مكتوم، فتحت عيني، رأيت الفتى ما زال راقدًا في الفراش وهو يتألم، يا إلهي، لقد أدركت أن ما رأيته لم يكن سوى حلم جميل، طاف بخيالي لبضع ثوان انتقل بي إلى عالم آخر، عالم الحب.

نظرت إلى الفتى فشككت أن جبهته تتصبب عرقا، قمت من مكاني وأسرعت نحوه، نعم إنه يتصبب عرقا بغزارة، حتى لقد ابتلت الوسادة تحت رأسه من كثرة ما سقط عليها من العرق،

وضعت يدي على جبهته، كي أتيقن من حرارة جسده، يا إلهي، إن حرارته مرتفعة للغاية.

طلبت من خادمتي "سمراء" الإسراع في طلب كبير الأطباء لأن الحمى قد أصابت الفتى فحرارة جسده مرتفعة للغاية.

انتفضت "سمراء" وتوجهت بسرعة إلى غرفة كبير الأطباء، ما إن طرقت على باب الغرفة حتى فتحه بسرعة وسألها: . هل من جديد؟

. نعم سيدي، أصابته الحمى، فجسده ينتفض من ارتفاع الحرارة.

. سآتي في الحال، ثم قال:

ـ كل هذا كان متوقعًا، جرح الفتى غائر، مزقت أنياب الذئب أربطة الكتف، أرجو ألا يؤثر هذا الحادث على كفاءة حركة الكتف والمعصم.

أسرع كبير الأطباء خلف الخادمة"سمراء" متوجهين إلى غرفة الفتى.

كان الباب ما زال مفتوحًا، فدخلا مباشرة إلى الفراش الذى يرقد عليه الفتى.

كانت علامات الجزع تبدو واضحة على الأميرة "علياء" وهي تقف إلى جانب فراش الفتى.

اقترب كبير الأطباء ووضع يده على جبهة الفتى وقال مخاطبًا الأميرة، يجب أن تنخفض حرارة جسده أولا وقبل أن أعطيه الجرعة الثانية من الدواء.

التفت كبير الأطباء إلى "سمراء" قائلا: . أحضري إناء به كثير من الماء.

أسرعت "سمراء" تخرج من الغرفة لإحضار ما طلبه كبير الأطباء الذي وجه كلامه

للأميرة قائلا: ـ ما إن نضع هذه القطعة من النسيج في الماء ثم نضعها على جبهة الفتى سوف تنخفض حرارة جسد الفتى بالتدريج وبعدها سوف أعطيه الجرعة التالية من الدواء.

شعرت الأميرة ببعض الراحة مما سمعته من كبير الأطباء. عادت الأميرة علياء إلى مقعدها وقد خفت حدة جزعها. جلست تراقب من بعيد ما يفعله كبير الأطباء وهو يشرح لـ "سمراء" ما ستفعله.

أمسك بقطعة النسيج ثم وضعها في الإناء المملوء بالماء الذى أحضرته "سمراء" ثم عصرها برفق ووضعها على جبهة الفتى ثم أخذ يمسح وجهه بلطف وقال لـ"سمراء "

عليك القيام بذلك حتى تنخفض حرارة جسده، بينما أنا أقوم بخلط بعض الأعشاب لأعطيه جرعة الدواء .

❊ ❊ ❊

التشبث بالحياة

توجه كبير الأطباء إلى أحد أركان الغرفة، وبدا وكأنه يسترجع بعض المعلومات عن الكميات المطلوب خلط بعضها ببعض لتركيب الدواء اللازم لعلاج الفتى.

أسرعت الأميرة "علياء" بالقيام من كرسيها الهزاز وقصدت الفتى ثم أشارت لخادمتها" سمراء" بالتوقف ثم تناولت قطعة النسيج وبدأت في عمل ما قاله كبير الأطباء.

لاحظت الأميرة "علياء" بعد مرور عدة دقائق أن حرارة جسد الفتى بدأت في الهبوط.

التفتت إلى كبير الأطباء وعلامات الارتياح بادية على وجهها وقالت:

. لقد بدأ جسده في الاستجابة.

أجابها كبير الأطباء وهو يستدير ويتجه نحوها:

. بعد تناول الجرعة الثانية سمو الأميرة ستكون استجابته أسرع.

لم تستطع الأميرة "علياء" أن تخفي سعادتها وقالت في نفسها:

آمل أن يترفق به القدير، وأن يعود هذا الفتى الشجاع إلى الحياة مرة أخرى، لا ينبغي أن يدفع حياته ثمنا لشجاعته.

يبدو أن كبير الأطباء قرأ ما يدور في ذهنها فقال بصوت مسموع:

. سيتعافى بنيتي، حالته إلى الآن تبدو مطمئنة رغم ما اعتراها من ارتفاع في حرارة جسده.

اقترب كبير الأطباء من الفتى ثم رفع رأسه برفق ووضع فوهة قارورة الأعشاب على شفتي الفتى وسكبها بلطف في فمه.

بعد أن انتهى من إعطائه جرعة الدواء قال:

ـ سآتي في الصباح لكي أقوم بتغيير الضمادات على جرحه، أرى أن تخلدي الآن إلى الراحة سمو الأميرة، إرادة الفتى في التشبث بالحياة ستحدد الكثير في الساعات القادمة، لن يستطيع أحد ما أن يفعل أفضل مما فعلنا.

نظرت السيدة العجوز إليّ كأنما تحاول أن تستشف وقع أحداث قصتها الغريبة على وجهي ثم قالت:

ـ رفضت ترك الفتى يا ولدي وقلت لخادمتي "سمراء" حينما طلبت مني أخذ قسط من الراحة: لن يهدأ لي بال حتى أطمئن عليه.

توجهت إلى مقعدي هذا وأنا أُمني نفسي برؤية ذلك الحلم الجميل الذي رأيته في غفوتي منذ دقائق.

أعدت رأسي إلى الوراء قليلا ثم أغمضت عيني، لم أر الفتى بحلته البيضاء وهو يراقصني بل رأيت أبي وهو يثور ثورة عارمة حينما فاتحته بما أشعر به تجاه ذلك الفتى، قال وهو يلوح بيده في عصبية شديدة:

ـ أتتركين أبناء النبلاء والأمراء ممن يرغبون في الزواج منك وتريدين أن تتزوجي من فتى يعيش على صيد الذئاب... لا، لن يحدث.

ـ من فضلك يا أبتي هدئ من روعك قليلا، كاد أن يلقى حتفه من أجل أن ينقذني من براثن ذلك الذئب.

ـ سوف أجزل له العطاء وسأعوضه بالكثير.... بنات الملوك لا يتزوجن إلا أبناء الملوك.

ـ أرجوك يا أبتي، أشعر بأني مسلوبة الإرادة أمام هذا الشعور الجارف الذى يجتاحني.

كلما تخيلت أني سأكون لغيره، أفقد شهيتي للطعام وأشعر باليأس وتفارقني الرغبة

في الحياة.

ـ ماذا تقولين؟ ليس بالضرورة لأنه أنقذ حياتك، أن تتزوجيه، ستزول هذه المشاعر ما إن نبدأ في الدخول في تفاصيل حفل خطبتك إلى الأمير "ثناء"

. أرجوك يا أبتي، لا أشعر تجاهه بأي عاطفة.

. ما زلتِ صغيرة السن وسوف تتغير مشاعرك كثيرًا.

. ما تقصده يا أبتي هي المشاعر الزائفة ولكن ما أشعر به تجاه هذا الفتى مشاعر صادقة.

بدأت علامات الصرامة والتصميم تظهر واضحة على وجه أبي معلنا انتهاء الحديث.

فتحت الأميرة عينيها، بدت وكأنها أفاقت من حلم مزعج، لا بل من كابوس ألقى بظلال قاتمة على قلبها، ثم نهضت بسرعة من مقعدها وتوجهت إلى الفتى ثم نظرت له نظرة متفحصة كأنما تريد أن تتحقق من رغبته في الحياة.

اقتربت منه أكثر فأكثر ثم انحنت وهمست في أذنيه قائلة:

ـ "إني انتظرك، أين شجاعتك التي واجهت بها ذلك الوحش الكاسر، عليك أن تتشبث بالحياة، رغبتك في الحياة سوف تساعدك على الشفاء، انتظر عودتك بكل شوق.....

شعرت الأميرة "علياء" بأن الفتى المسجى أمامها يسمعها، محاولا الاستجابة لكلماتها، ولكنه لا يقوى على الحراك.

اقتربت الخادمة "سمراء" من الأميرة "علياء" وقالت في نبرة استعطاف:

ـ أرجوك مولاتي، آثار الإجهاد بادية على وجهك، عليك أخذ قسط من الراحة وسأبذل قصارى جهدي للعناية به.

رفضت الأميرة "علياء" بابتسامة رقيقة وقالت:

. لقد أنقذ حياتي أنا وعليّ أنا أن أعتني به. ثم سألتها:

. هل حان موعد الجرعة التالية من الدواء، أم لا؟

لقد قال كبير الأطباء مولاتي:

إنه سيأتي بعد شروق الشمس بقليل ليعطيه بنفسه جرعة الدواء، ويقوم بتغيير الضمادات على جرحه.

. حسنا ، اخلدي أنت للراحة وسأوقظك إن حدث أي جديد .

عادت الأميرة "علياء" إلى مقعدها وهي تمني نفسها بمعاودة رؤية ذلك الحلم، وما إن أعادت رأسها للوراء، حتى أغمضت عينيها كأنما تريد إسدال الستار على الفصل الأخير من قصتها مع الفتى.

❊ ❊ ❊

بداية النهاية

التفتت السيدة العجوز مرة أخرى إليّ وقالت:

. تبدو علامات الحيرة على وجهك ياولدي.

ـ نعم سيدتي، أنا أريد أن أعرف حقيقة ما حدث، هل انتهت علاقتك بالفتى الذي أنقذ حياتك وبدأت مرحلة جديدة، أعني تزوجت من الأمير "ثناء"؟

عاودت السيدة العجوز الحديث عن قصتها بعدما اعتدلت في مقعدها ثم اتجهت ببصرها إلى أبواب القصر وقالت:

. في صباح أحد الأيام، أتذكر هذا اليوم جيدًا وأتذكر ما حدث فيه بكل دقة.

حضرت إلى غرفتي كبيرة الوصيفات وقالت في نبرة حادة وآمرة للخادمات :

. عليكن مغادرة الجناح الآن، مولاي الملك على وصول.

أسرعت الخادمات بالخروج من غرفتي، لحظات ودخل أبي إلى غرفتي وعلامات الضيق تبدو على قسمات وجهه وقال:

. لقد تحدث إليّ الأمير "ثناء" عن معاملتك الجافة له، ما الذي اعتراكِ؟ أراك غير عابئة بما يحدث حولك! أراك غير سعيدة رغم اقتراب موعد حفل خطبتك إلى الأمير "ثناء".

ـ يا أبتي، حاولت خلال الأيام الماضية الاقتراب من الأمير "ثناء" ولكن راعني ما رأيته من خصال منفرة، فتى مدلل، دائم السهر، مغامراته مع بنات وزوجات الأمراء لا تنتهي، يقضي ليله في السهر ومعاقرة الخمر، وطوال النهار هو في سبات عميق.

. هذا يا بنيتي أمر جائز في سن الشباب، فما زال الأمير في مقتبل العمر.
. عفوا يا أبتي، هذه طبائعه ولن يستطيع تغييرها، شئنا أم أبينا.
أسرعت الخادمة "سمراء" إلى الأميرة "علياء"، وجدتها ما زالت نائمة على مقعدها ودمعة وراء أخرى تهوي من عينيها على وجنتيها.
اقتربت منها بهدوء وقالت:
. مولاتي، أعلن حراس القصر عن وصول مولاي الملك من رحلة الصيد.
فتحت الأميرة "علياء" عينيها ومسحت دموعها بطرف إصبعها وقالت:
. هل نمت كثيرًا يا "سمراء"؟
. لا مولاتي، ولكن يبدو أن ما رأيته خلال غفوتك هو حدث جلل.
. نعم يا "سمراء"، لم أستطع الصمود كثيرًا أمام كلمات أبي، أردت ألا أثير استياءه، لقد أنبني على مجافاة الأمير "ثناء"، لم يرفض أبي طلبا لي طوال حياتي، ولكنه الآن يرفض وبإصرار عدم إتمام خطبتي للأمير "ثناء" ويرى أنه على حق، وأني ما زلت صغيرة السن رغم أني تجاوزت العشرين عامًا بقليل.
إن كلمات أبي تدفعني دفعًا لإتمام خطبتي للأمير "ثناء" رغم أني لا أشعر تجاهه بأي عاطفة.
ثم استطردت تقول:
. قبل رحلة الصيد بأيام قليلة، حدثني أبي عن الأمير "ثناء" ابن أخلص أصدقائه وأفضل مستشاريه وقال: . يريد أن يتزوجك !!!
. لا أشعر تجاهه يا أبتي بأي عاطفة، أراه عديم الخبرة بالحياة، طائش، مدلل، شديد الاعتداد بنفسه إلى حد الغرور، بلغت أنانيته حدًا لا يوصف، لا يرى في هذا الوجود إلا نفسه، ثرثار في أتفه الأمور.

قالت "سمراء" في دهشة:

. ألا تجدين فيه صفة واحدة حميدة مولاتي؟

ـ لا يا "سمراء"، الغرور والأنانية صفتان ذميمتان تقتلان كل الصفات الحميدة.

ـ لقد التقيت بالأمير "ثناء" مرات عدة منذ أن حدثني أبي عن رغبته في الزواج مني، تحدثنا كثيرًا، لم أشعر برغبة داخلي تجاهه، حتى ولا لحظة إعجاب واحدة، فمنذ أن التقينا وهو يحدثني عن نفسه باعتداد واعتزاز كبيرين، وعن مغامراته النسائية وعن اهتمامه بملبسه، لقد مللت حديثه في المرات القلائل التي التقيته فيها، ومع هذا يصر والدي على استكمال مشروع خطبتنا متجاهلا مشاعري.

. لقد كنت يا "سمراء" على وشك الاستسلام لرغبة أبي لولا هذا الحادث الذي كاد أن يودي بحياتي بين أنياب ذئب كاسر.

إن ظهور هذا الفتى في تلك اللحظة أعاد لي نفسي، لقد شغل تفكيري رغم أني لم ألتقيه إلا منذ ليلة واحدة، ربما بسبب شجاعته المفرطة وجرأته على تحدي الصعاب، لم يتوقف لحظة واحدة عن نجدتي ولم يفكر برهة فيما قد يؤذيه، كان يعرف أنه ربما يلقى حتفه واندفع من بين الأشجار في جسارة لينقذ فتاة ضعيفة من أنياب وحش كاسر.

عليّ الآن يا "سمراء" أن أرد له الجميل، سأجلس إلى جواره إلى أن يستفيق من إغماءته ويستعيد وعيه حتى وإن ظللت في هذه الغرفة لأيام ولياليّ.

نظرت إليّ "سمراء" باندهاش لا يخلو من الإعجاب بحديثي وهي تقترب من شرفة الغرفة وبادرتني بسؤال:

ـ ألن يتسبب اهتمامك بالفتى وبعلاجه في استياء الأمير "ثناء"؟ لا تتبقى إلا أيام قليلة على حفل خطبتكما؟

قامت الأميرة من مقعدها وتوجهت إلى الشرفة ونظرت خارجها وقالت:

ـ أحب كثيرًا رؤية الشمس وهي ترسل أشعتها من بين السحاب في اتجاه القصر.

إن ظهور هذا الفتى في حياتي سيلقي بظلال كثيفة على القصر في الأيام القادمة.

أشعر الآن يا "سمراء" بأني أكثر إصرارًا على عدم استكمال خطبتي إلى الأمير "ثناء"، ومجرد التصريح بهذا الأمر لأبتي سوف يثير غضبه الشديد وأنا لا أريد أن أغضبه، منذ أن توفيت أمي وهو يبالغ في إرضائي، أريد أن أنهي مشروع خطبتي من الأمير "ثناء" في أقرب وقت ولكن دون أن أثير حفيظة أبي، فهو يعلم أني لا أشعر بالرغبة في إتمام الخطبة، ولكني أتحدث معه صراحة بذلك، بل تحدثت فقط بصراحة عن طبائع الأمير "ثناء" والتى لا أستطيع أن أتعايش معها، وأبي يرى أن مشاعري هذه سوف تتغير في الأيام التالية للحفل،

فكل ما يريده أبي هو أن يرى ابنته ترتدي فستان الزفاف.

ارتفعت نبرة الحدة في صوت الأميرة "علياء" وقالت:

ـ ولكن ما قيمة أن أرتدي فستان الزفاف لليلة واحدة ثم أسلم جسدي طواعية لمن لا أشعر نحوه بأي عاطفة؟ كل ما هنالك هو أنه ابن أخلص مستشاري أبي!

نظرت الأميرة "علياء" إلى سقف الغرفة وقالت بصوت خافت:

. ليت أبي يساعدني على اتخاذ هذه الخطوة بهدوء ودون أن يغضب مما سأفعله.

اقتربت "سمراء" من الأميرة "علياء" واحتضنتها بحنان وقالت:

ـ اقترب مولاي الملك من بوابة القصر وخلفه مباشرة الأمير "ثناء"، بالتأكيد سيصعد إلى هنا مولاتي.

ظهر التوتر على الأميرة "علياء" عندما علمت بقرب صعود أبيها إلى الغرفة التي يعالج فيها الفتى وظلت تتحرك جيئة وذهابًا وهي تتساءل بصوت يكاد يكون مسموعًا:

. هل أحدثه الآن عما أنوي فعله، أم انتظر للمساء؟

ظنت "سمراء" أن الأميرة " علياء" تحدثها فقالت:

. عفوا مولاتي لم أسمعك بوضوح.

. لا شيء يا "سمراء" إني فقط أفكر بصوت مرتفع.

ظلت الأميرة تجوب الغرفة إلى أن توقفت أمام فراش الفتى ونظرت إلى وجهه، فوجدته ما زال يرقد في سلام، أدركت أن الدواء الذي أعطاه كبير الأطباء بدأ يؤتي ثماره.

* * *

الراقد في سلام

قامت السيدة العجوز من على مقعدها وبدأت تجوب الغرفة جيئة وذهابا كأنها تريد أن تسترجع ما حدث بالتفصيل في تلك اللحظات دون أن تنسى منه شيئًا ثم أشارت إلى أحد الأركان في الغرفة وقالت:

ـ رقد الفتى على هذا الفراش في سلام، لما نظرت إلى وجهه، أدركت أن الدواء الذي أعطاه كبير الأطباء نجح بالفعل في علاجه، إنه يتنفس بانتظام، لم أعد أسمع أناته، توقف جبينه عن التصبب بالعرق، وتوقف نزيف الدماء من جرحه بعد أن قام كبير الأطباء بخياطته.

ـ اقتربت منه في هدوء يا ولدي وأمسكت بيده ووضعتها بين راحة يديّ، كأني أحاول استعادة إحساس الرعشة الذي سرى في جسدي عندما لمست جبهته في المرة الأولى، أو ربما كنت أحاول أن أستمد منه القوة كي أفاتح أبتي في عدم المضي قدمًا في مشروع خطبتي من الأمير "ثناء".

كانت "سمراء" تقف بالقرب من الشرفة تراقب حديقة القصر، التفتت إليّ وقالت:

ـ نزل مولاي الملك من على فرسه، بدأ في ارتقاء درجات السلم الخارجي للقصر وإلى جانبه حارسه "مهاب" وخلفه مباشرة الأمير "ثناء".

عادت "سمراء" للنظر من الشرفة وقالت:

ـ يبدو مولاتي أن الأمراء والأميرات سينتظرون في حديقة القصر، الخدم عند البوابة الخارجية للقصر يحملون جثمان كبيرة الوصيفات التي صرعها الذئب في طريقهم للمقابر.

في تلك اللحظة فتحت إحدى وصيفاتي باب الغرفة ثم قالت:

ـ مولاي الملك في غرفته وسوف يأتي بعد قليل للاطمئنان عليك مولاتي وعلى الفتى المصاب.

ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها.

تركت يد الفتى وعدت أنظر من الشرفة في محاولة للسيطرة على مشاعري واستعادة رباطة جأشي وقلت بصوت منخفض سمعته "سمراء":

- لقد استقر رأيي على ألا أتحدث إلى أبتي في موضوع عدم استكمال مشروع الخطبة إلى الأمير "ثناء" الآن، عليّ أن أؤجل الحديث فيه إلى المساء.

أعتقد أن أبي لن يكون على استعداد لسماع أخبار أخرى سيئة هذا الصباح بعد مصرع كبيرة الوصيفات وإصابة الفتى إصابة بالغة.

ما إن انتهت "سمراء" من حديثها للأميرة "علياء" حتى دخل الملك الغرفة وقد بدت على وجهه علامات الاهتمام وقال:

. كيف حال الفتى؟ وأين كبير الأطباء؟

- إنه في غرفته يا أبتي، يقوم بمحاولات عدة لاستخراج مادة من عشب يعتقد أنها ستفيد في تخفيف آلام المرضى.

. حسنا.... حسنا....

أسرعت "سمراء" إلى خارج الغرفة متجهة إلى غرفة كبير الأطباء وطرقت الباب بشكل سريع الإيقاع ومنتظم، ولما فتح الباب، قالت له:

. مولاي الملك يستدعيك سيدي في غرفة الفتى .

رد قائلا :

. آمل ألا يكون قد حدث مكروه آخر.

. لا سيدي، إنه يريد الاطمئنان منك على حالة الفتى.

أسرع كبير الأطباء مهرولا إلى غرفة الفتى ومن ورائه الخادمة "سمراء"، وما إن رأى الملك يقف إلى جانب فراش الفتى، حتى انحنى قليلا ثم نظر إلى الأرض وقال:

. أمر مولاي.

ـ ما حال الفتى الآن، أراه يتنفس بصعوبة، أخشى على حياته، لقد شغلني أمره منذ أن وقع الحادث، صورته وهو مُسجى على الرمال والذئب ممسك بكتفه يحاول سحبه بين الأشجار لم تفارق خيالي طوال رحلة العودة إلى القصر، لقد أبلى بلاءً حسنا، وحان دورنا لنرد له الجميل، لقد أنقذ حياة ابنتي كما تعلم. وهو يشير إلى الأميرة "علياء"

. لقد حدثت تهتكات شديدة في الكتف وقد قمت بخياطة الجرح الغائر، وتناول جرعتي دواء، إطمئن مولاي، الفتى يلقى أشد الرعاية والعناية منا جميعا وعلى الأخص الأميرة "علياء" فهي لم تبرح هذه الغرفة منذ أن حضر الفتى مصابا.

نظر الملك إلى الأميرة "علياء" نظرة إعجاب بما تقوم به وقال:

ـ حسنا.... حسنا.... إن الاهتمام بالضعفاء وذوي العاهات واليتامى هو من أنبل الأعمال، مالي أرى وجه الأميرة مصفرًا؟ أعرف أن ما تعرضت له بالأمس القريب يُعد امتحانا قاسيًا للغاية، ولكني أعرف أن شجاعتك سوف تساعدك على تجاوز هذه الأزمة.

ابتداءً من الغد سنقيم الولائم في القصر للفقراء والمساكين، شكرًا للقدير على نجاتك من هذا الحادث.

أكمل الملك حديثه وهو متجه إلى باب الغرفة قائلا :

ـ أريد أن أنال قسطا من الراحة، سأتوجه الآن إلى جناحي ثم سنجلس سويًا بنيتي هذا المساء قبل حضور الأمير "ثناء "
قبّل الملك جبهة الأميرة "علياء" ثم انصرف خارجًا.
اقترب كبير الأطباء من فراش الفتى وهمّ أن يعطيه الدواء، ولما وجد صعوبة في رفع رأس الفتى من على الفراش، نظر للخادمة "سمراء" لتقترب من فراش الفتى وتساعده في رفع رأس الفتى قليلا .
قبل أن تتحرك من مكانها تبادلت النظرات مع الأميرة "علياء" وعلى إثرها، توقفت في مكانها ولم تقترب من فراش الفتى، أسرعت الأميرة بالاقتراب من فراش الفتى ثم رفعت رأسه بهدوء وبرفق.
ما إن فرغ كبير الأطباء من إعطاء الفتى الجرعة الثالثة من الدواء، حتى توجه إلى باب الغرفة وهو يقول:
. سيتعافى بإذن القدير وسيكون في حال أفضل في الأيام القادمة.
بادرت الأميرة "علياء" خادمتها "سمراء" بسؤال ما إن خرج كبير الأطباء قائلة:
. هل لاحظ أبي شيئا؟
. لا يا مولاتي، تبدو فقط على مولاي آثار الإرهاق من رحلة الصيد.
ـ على العكس يا "سمراء"، أنا أعرف أبي جيدًا، هو شديد الذكاء، يستطيع قراءة أفكار من يحاوره .
لقد استشف من وجودي هنا في هذا الوقت المبكر أني شديدة الاهتمام بالفتى، وأن هذا يعني من وجهة نظر أبي تعبير عن مشاعر أقوى بكثير من الإحساس برد الجميل للفتى على صنيعه وإنقاذ حياتي، لذلك حاول

في حديثه أن يخفف من حدة اندهاشه من تواجدي في هذا الوقت المبكر بأن قال:

إن القدير يبارك فيمن يهتم بأمر الضعفاء، ولذلك طلبني للحديث في أمر خطبتي للأمير "ثناء" الليلة.

توجهت الأميرة "علياء" إلى شرفة الغرفة وهي تقول:

ـ من الأفضل أن ننهي هذا الموضوع مساء اليوم، حسنا فعل أبي، إنه يشعر بداخله أني لا أميل بمشاعري تجاه الأمير "ثناء"، وعليّ أن أؤكد له هذا الشعور وأطلب منه عدم استكمال هذا المشروع الذي أرى أنه فشل قبل أن يبدأ.

. أرجوك مولاتي، حاولي مرة أخرى!

. أحاول ماذا يا "سمراء"؟ المشكلة الآن تكمن في تداعيات فشل مشروع الخطبة.

ـ الأمير "ثناء" هو ابن أحد أقرب أصدقاء أبي وأخلص مستشاريه، لا أخفيك سرًا يا "سمراء" فأنت كاتمة أسراري، منذ أن رأيت هذا الفتى وأنا أشعر بأن شيئا ما قد تحرك بداخلي لا أستطيع التحكم فيه، وهو يدفعني دفعا لأن أتخلص من الأمير "ثناء"، وأكاد أجزم بأن شجاعة هذا الفتى قد أسرتني، رغم أنه حتى هذه اللحظة غير مدرك لما أقوله.

ـ هذه مشكلة أخرى مولاتي، إن استطعت كسب تعاطف مولاي الملك، وخضع لرغبتك وهذا ما أعتقد أنه سيحدث فمولاي لا يتأخر عنك في إجابة أي طلب، بذلك تكونين قد قطعت نصف المشوار، أما النصف الآخر فسيكون الأكثر صعوبة، نحن لا نعرف من هذا الفتى! تبدو عليه علامات البساطة، هو في الأغلب الأعم من عامة الشعب وبالتالي ففكرة

أنك فضلتِه على الأمير "ثناء" ستؤدي إلى كثير من المشاكل، أنت في غنى عنها.

ـ نعم هو كذلك، إذا وصل أمر الفتى إلى الأمير "ثناء" ربما سيحاول أن ينال منه، بذلك أكون قد سببت له المتاعب بدلا من أن ينال مكافأة نظير إنقاذه لحياتي، دعينا الآن ألاَ نستبق الأحداث، الأيام القادمة ستحمل في طياتها الكثير والكثير من الأحداث....

اقتربت الأميرة " علياء" من الفتى ونظرت إلى وجهه وقالت:

ـ سأغادر الغرفة الآن، حتى لا يزداد الأمر تعقيدًا إن تيقن أبي من اهتمامي بالفتى.

❊ ❊ ❊

صرخة السعادة

بينما كانت الأميرة "علياء" تتحدث إلى خادمتها، تحركت إحدى أصابع الفتى حركة بسيطة، ثم حرك راحة يده برفق فلمس بطرف إصبعه يد الأميرة، ما إن شعرت الأميرة بلمسة إصبعه حتى تراجعت خطوة للوراء ووضعت كلتا يديها على وجهها وهي تكتم صرخة السعادة التى كادت تخرج من فمها. عادت خطوة أخرى للوراء وهي توجه كلامها لـ "سمراء" وتقول:

. أقسم بالقدير أني شعرت بلمسة يده، عادت تنظر لخادمتها، لكنه الآن لايحرك ساكنا، ليته يعطيني إشارة واحدة يؤكد بها أنه يسمعني.

أشفقت "سمراء" على الأميرة وظنت أنها تتخيل أشياء لا تحدث وقالت بصوت تملأه الشفقة:

. يا مولاتي، لقد أجهدت نفسك البارحة كثيرا، وتقفين على قدميك منذ أن عدنا من رحلة الصيد المشؤومة هذه، لقد طمأننا كبير الأطباء على حالته ولكنه الآن ما زال في نوبة الإغماء، أرجوك مولاتي خذى قسطا من الراحة، فساعات المساء ستكون مليئة بالأحداث وستحتاج منك إلى ذهن صاف لإقناع مولاي الملك بما تريدين.

ـ حسنا يا "سمراء"، قالتها الأميرة "علياء" وقد بدا عليها الاهتمام والاقتناع بما قالته خادمتها وقالت في نفسها:

ـ أعرف أن ما شهدته بالأمس من أحداث جسام إضافة لحالة الإرهاق التي أعانى منها قد نالا مني وعليّ الآن أن أتوجه إلى جناحي الخاص لأحصل على قسط من الراحة، فلم يغمض لي جفن طوال الليلة السابقة إلا لحظات قليلة، ثم قالت في نبرة أشبه بالأمر:

عليك إبلاغي إن طرأ أي جديد أولا بأول يا "سمراء".

. أمر مولاتي....
فتحت "سمراء " باب الغرفة للأميرة "علياء" وقالت:
. أحسب أن كبير الأطباء قال: إن الفتى سيتناول جرعة الدواء القادمة بعد مغيب الشمس.
خرجت الأميرة "علياء" من الغرفة متوجهة إلى جناحها لأخذ قسط من الراحة وهي تتمتم، أقسم بالقدير إنه حرك يده ولمس إصبعي، كأنما يريد أن يقول لي:
. أنا أسمعك مولاتي الجميلة ولكني لا أقوى على أن أتحرك من مكاني، إن حركة إصبعي هذه هي أقصى ما أستطيع أن أفعله الآن.
التفتت السيدة العجوز إلى البلورة السحرية، كأنما كانت تريد أن تتأكد أنها ما زالت موجودة في المكان الذي وضعتها فيه، ثم نظرت إليّ نظرة خاطفة، كأنما تريد أن تتأكد من اهتمامي بما تقول ثم استطردت:
. لقد دخلت إلى جناحي يا ولدي وألقيت بجسدي المنهك على فراشي وأنا أحدث نفسي، أمامي عمل شاق الليلة، حديثي مع أبي سيحدد الكثير والكثير ولا أريد أن يشاركنا لقاء الليلة الأمير " ثناء"
ـ سأطلب من أبي أن نجلس سويا قبل أن يستدعيه ويبلغه بقراري، ليس أمامي من حل سوى أن أقنع أبي برغبتي.
ولكن ماذا إن قابل أبي الحجة بالحجة وأصر على رأيه خاصة أن المسئول عن تجهيز فقرات
الحفل سيأتي في الصباح.
لم يطلبني أبي لكي أناقشه في رغبتي في عدم استكمال الخطبة من الأمير "ثناء" بل ليسمع رأيي في الفقرات التي سيتضمنها الحفل.

ستكون صدمة كبيرة لأبي، عليّ أن أسوق الحجج، دون أن أثير غضبه، أحمد القدير أنني اتخذت القرار الصائب في الوقت المناسب.

ظللت أحدق في سماء الغرفة وأنا أتساءل في صمت:

هل حقا للفتى دور في قراري هذا وأن القدير أرسله لي في الوقت المناسب كي أستطيع أن أتغلب على ضعفي وأتخذ هذا القرار.

أعلم جيدًا أن مجرد التفكير في اتخاذ قرار كهذا يحتاج إلى حسابات كثيرة للغاية، لقد أجهدت نفسي في البحث عن إجابة لهذه الأسئلة، لم أشعر يومًا بهذا الكم من الإجهاد.

غلبني النعاس يا ولدي فرحت في سبات عميق.

❊ ❊ ❊

سباق مع الزمن

حاولت السيدة العجوز القيام من مقعدها، ولما وجدتها تحاول القيام ولا تستطيع مددت إليها يدي لتتكئ عليها، استطاعت الوقوف ببطء شديد ثم قالت بصوت ضعيف وهي تتجه صوب بلورتها السحرية الموجودة على المنضدة بعد أن وضعت كلتا يديها عليها:

. انظر يا ولدي دون أن يشغل قلبك سوى من تحب.

اقتربت من المنضدة ومددت يدي ببطء، وضعت يدي ثم أغمضت عيني، وما إن فعلت حتى علا صوتي حتى ظننت أن كل من بالقصر قد سمع صوتي:

ـ يا إلهي.. رأيتها بملابسها البيضاء الفضفاضة وهي تجري، بينما كانت تنظر خلفها بين لحظة وأخرى، إنها تحاول الهرب من شيء ما، الذئاب تحيط بالمكان، تراقبها وهي تجري، وهناك عيون كثيرة تنظر إليها تنتظر اللحظة المناسبة لتنقض عليها، ولكن أين هذا المكان؟ إنه نفس المكان الذي تركت فيه يدي.

استدارت السيدة العجوز ببطء متجهة إلى كرسيها الهزاز بجانب الشرفة، وما إن جلست حتى عاودت النظر إلى أسوار القلعة، ثم قالت بصوت أكاد أسمعه، لا أريد أن يفوتني شيء، أريد أن أراه لحظة عودته إلى القصر ولن أبرح مكاني هذا قبل أن يعود.

فتحت عيني يا ولدي على صوت خادمتي "سمراء" وهي تزف إليّ البشرى:

. مولاتي لقد فتح الفتى عينيه ونظر إليّ، ثم أغلق جفنيه وراح في سبات.
نظرت لخادمتي "سمراء" وقلت باندهاش وأنا أستعد للجلوس في فراشي:
. حقا يا سمراء، هذا ما كنت أرغب في سماعه قبل أن أجلس مع والدي.
نهضت بسرعة من فراشي وقلت بلهجة تشوبها السعادة:
ـ أريد أن أرتدي أجمل ثيابي، أريد أن يراني عندما يفتح عينيه في أبهى صورة.
توجهت الأميرة واتبعتها خادمتها "سمراء" إلى خزانة ملابسها، نظرت إليها بتمعن ثم وضعت إصبعها على فمها ثم قالت بصوت مرتفع:
. هل أرتدي هذا أم هذا يا "سمراء"؟ إني حائرة.
. مولاتي إن الملابس البيضاء تضيف إلى جمالك الأخاذ بريقا.
. حسنا، ساعديني على ارتداء هذا بسرعة.
وقفت الأميرة أمام المرآة لتلقى نظرة أخيرة على هيئتها، قبل أن تخرج من غرفتها، بينما كانت سمراء تحضر صندوقا من خزانة ملابس الأميرة وسألتها:
ـ أي الحلي سترتدين مولاتي؟ وأخرجت عقدًا من الألماس وُقالت وهي تحاول وضعه حول رقبة الأميرة:
. يبدو هذا جميلا على مولاتي .
ـ لا ! أريد أن يراني في أجمل صورة وأبسطها، ليس هذا وقت ارتداء الحلي يا "سمراء"
أسرعت الأميرة نحو باب غرفتها متوجهة إلى الغرفة التي يرقد فيها الفتى ومن ورائها خادمتها "سمراء"

ما إن اقتربت من غرفة الفتى حتى رأت كبير الأطباء خارجا منها وبيده قارورة دواء، بادرته بسؤال: . كيف حاله الآن؟

. إنه يتحسن سمو الأميرة.

. ولكن متى سيعود إليه وعيه؟

ـ عما قليل، لقد أعطيته جرعة من الدواء، ستساعده على استعادة وعيه بسرعة، سانصرف إلى غرفتي لأستكمل ما كنت أقوم به، يحتاج الفتى للراحة، ستساعده الراحة على التئام جروحه بسرعة.

فتحت الأميرة باب غرفة الفتى ودخلت متوجهة إلى فراش الفتى ثم وقفت تحدق في وجهه وهي تحدث نفسها.

ليته يفتح عينيه الآن، أريد أن أراهما وأمعن النظر فيهما، إنهما تبدوان وكأنهما غارقتان في مياه البحر الزرقاء، وتبدو جفونه كالشطآن.

بينما الأميرة غارقة في تأمل وجه الفتى إذا بإحدى الوصيفات تفتح الباب وتقول:

. سمو الأميرة، مولاي الملك في انتظارك في جناحه.

استدارت وأغلقت الباب خلفها.

اقتربت "سمراء" من الأميرة وقالت:

. الوقت ليس في صالحك مولاتي، لا تدعي مولاي الملك ينتظرك كثيرًا!!!

عاودت الأميرة النظر لوجه الفتى كأنما تريد أن تستمد القوة من ذاك النائم أمامها لكي تواجه موقفا يحتاج إلى الكثير من الشجاعة وأيضًا الفطنة والذكاء. هي تريد الحصول على وعد من أبيها بعدم استكمال خطبتها من الأمير "ثناء" وفي نفس الوقت لا تريد تغضبه. إنها تدرك جيدا أنها في سباق مع الزمن،

موعد الحفل يقترب وعليها أن تضع حدًا لهذا الموضوع في لقائها مع أبيها.
خرجت الأميرة "علياء" من غرفة الفتى وتعمدت السير بتمهل في البهو متجهة إلى جناح أبيها، إن الموقف يحتاج إلى أن تضغط على أبيها بشتى الطرق حتى وإن تطلب الأمر انفجارها في البكاء لكي تستدر عطفه.
تخطت الأميرة الباب الخارجي للغرفة، لجناح نوم أبيها، وما إن فتحته حتى وجدت أباها جالسا على مقعده المعتاد في إحدى أركان غرفته، وما إن رآها حتى فتح ذراعيه عن آخرهما كما يفعل دائما كلما رآها وقال:
. ها قد جاءت سمو الأميرة "علياء" فلذة كبد أبيها.
اقتربت الأميرة من مقعد أبيها وانحنت لكى يقبلها في جبينها.
. مالي أرى وجه سمو الأميرة عابسًا، من الذي يجرؤ على أن يعكر صفو مزاج الأميرة قبل حفل خطبتها بأيام.
. سأقتص منه حتما أميرتي، سآمر "مهاب" بقطع رأسه في التو واللحظة، فقط إشارة منك وينتهي الأمر.
ارتمت الأميرة على المقعد المجاور وقالت بصوت أقرب إلى التوسل:
. هذا ما جئت لأتحدث فيه معك يا أبتي وأرجو ألا تخيب رجائي.
بدأت علامات الاهتمام تظهر على وجه أبيها ثم قال: حانت لحظة الجد يا بنيتي.
. خيرًا، مالذى لا أعرفه بعد وأثار كل هذه الضجة؟
استجمعت الأميرة شجاعتها ثم قالت في هدوء:
. لا أريد أن أستكمل مشروع خطبتي من الأمير "ثناء"
تغيرت قسمات وجه الملك، ورد بحدة:
. ماذا تقصدين بهذا الكلام؟ حاول أن يستوثق مما قالته فسألها:

. أتقصدين تأجيل الحفل؟

أجابت الأميرة والدموع تتلألأ في عينيها:

ـ لا يا أبتي، أريد أن أنتهي من هذا المشروع، لا أريد الارتباط بالأمير "ثناء"، أشعر بأني سأكون تعيسة معه. هو شديد الأنانية، لا يهتم إلا بنفسه، ضعيف أمام نزواته، مغامراته فاقت كل حد.

ـ يا بنيتي، هذه ليست سوى أخبار زائفة، روجها المغرضون، حتى وإن كانت صحيحة، هذه الأشياء هي بالأمر المعتاد في هذه السن.

اعتدل الملك في جلسته ثم نظر في عينى الأميرة وقال:

. أعدك بأن يتوقف عن هذا اللهو.

قام الملك من على مقعده ثم قال:

. قبل قليل كان يجلس في هذا المكان وأشار إلى المقعد الذي تجلس عليه الأميرة، والد الأمير "ثناء"، كما تعرفين هو أخلص أصدقائي، وأنا أسندت إليه مهام كثيرة في المملكة، وهو يقوم بها على أكمل وجه.

خطا الملك في اتجاه الشرفة وعقد يديه خلف ظهره، وقال بصوت مرتفع:

لقد وصلت بالفعل دعوات الحفل إلى الأمراء والأميرات وملوك الممالك المجاورة، ولقد أكدوا الحضور في الموعد المحدد، لقد انطلق السهم في اتجاه الهدف ولن يستطيع أحد إيقافه، ثم نظر نظرة خاطفة إلى الأميرة "علياء" فوجد الدموع تتلألأ في عينيها، استدرك قائلا في محاولة لإقناعها بفداحة ما تطلبه!!!

. أتعرفين كم عدد المدعوين الذين سيأتون في هذا الحفل؟

صمتت الأميرة ولم تنبس شفتاها بكلمة.

ـ ما يزيد على ثلاثة آلاف مدعو، ما لا تعرفينه! أن والد الأمير "ثناء" اقترح عليّ منذ قليل أن لا يقتصر هذا الحفل على الخطبة، بل أن يتحول إلى حفل زفاف، وأنت الآن تطلبين إلغاء الحفل، يالسخرية القدر، بل وتريدين تجاوز كل تجهيزات الحفل التى وصلت إلى المراحل النهائية، فقط لمجرد شائعات نقلها لك الموتورون هنا أو هناك.

ثم قال في لهجة حادة وآمرة:

. لقد تجاوزنا مرحلة الاختيار، أو الرجوع خطوة للخلف.

أراد الملك أن يخفف حدة حديثه مع الأميرة، فقال:

ـ ما نستطيع أن نفعله الآن أن نقول بأن الأميرة "علياء" تفضل بأن يقتصر الحفل على الخطبة فقط على أن نؤجل الزفاف إلى الصيف القادم، لا أن نقول أن الأميرة تريد أن تلغي الحفل بكامله.

حاولت الأميرة أن تقنع أباها بحجتها في أن هذا الزواج سوف ينتهي بالفشل كما انتهت حالات زواج كثيرة بين أمراء وأميرات، إلا أن أباها رفض الحجة التي ساقتها.

قامت الأميرة من مقعدها وتوجهت إلى أبيها وقالت:

. ألم ترى يا أبتي ما آل إليه زواج الأمير "بهاء" من الأميرة "دعاء"، أخشى أن يكون هذا مصيرنا أنا والأمير "ثناء".

رفض الملك حجج الأميرة وأعلن انتهاء الحديث في هذا الموضوع قائلا:

. إن كانت الأميرة لا تدرك حجم المسئولية فهذه كارثة، وإن كانت تدركها ولا تهتم بآثارها فالكارثة أكبر، ثم انحنى والتقط جرسًا صغيرًا من على منضدة بجوار فراشه وهزه بحركات عصبية، فأحدث رنينا متواصلا ثم أعاده إلى مكانه.

لحظات ودخل كبير الخدم، انحنى ثم قال:

. أمر مولاي.

. أريد أن أرتدي ملابسي.

. سمعا وطاعة مولاي.

أدركت الأميرة "علياء" أن أباها قد أنهى الحديث في هذا الموضوع وعليها أن تعلن انصياعها الكامل لرغبته.

اقتربت الأميرة من أبيها ثم وقفت على أطراف أصابعها وقبلته في وجنتيه كما تفعل كلما التقت به، ثم نظرت إلى الأرض وانحنت وهي تقول:

. أيأذن لى مولاي بالانصراف؟

لم يرد على سؤالها بل قام بتحريك رأسه من أعلى لأسفل ثم إلى أعلى ثانية.

تراجعت الأميرة قليلا ثم استدارت، وأسرعت الخطى إلى باب غرفة نوم الملك.

❊ ❊ ❊

البشرى

اعتدلت السيدة العجوز في مقعدها قليلا، فأعادت تحريك كرسيها الهزاز مرة أخرى إلى الأمام ثم إلى الخلف وقالت:

ـ ما إن خرجت من حجرة أبي، حتى أسرعت بالجري في البهو المؤدي إلى حجرتي ودموعي تنساب على وجنتي.

أتتني خادمتي "سمراء" من الجهة المقابلة في البهو وهي مهرولة وقالت:

ـ مولاتي، لقد فتح الفتى عينيه وتمتم ببضع كلمات بصوت منخفض، أعتقد أنه سأل:

ـ هل استطعت إنقاذها؟

ثم أغمض عينيه وغاب مرة أخرى عن الوعي.

ـ مسحت دموعي بسرعة وقلت لخادمتي وأنا متوجهة إلى غرفة الفتى:

ـ أسرعي يا "سمراء"، أريد أن أكون إلى جانبه عندما يفتح عينيه في المرة القادمة.

وصلت إلى غرفة الفتى فوجدت الباب مفتوحا، دفعته قليلا ثم دخلت ومن ورائي خادمتي "سمراء"

اقتربت ببطء وأنا أمشي على أطراف أصابعي حتى لا أصدر صوتا يزعجه

.

وقفت إلى جانب فراشه وأنا أمسح بسرعة آثار الدموع التي سالت على وجهي لئلا يستفيق من إغماءته ويراني وأنا أبكي.

ثم وجهت كلامي لخدمتي متسائلة:

ـ ألم يقل كبير الأطباء، إنه سوف يحضر لكى يغير الضمادات المخضبة بالدماء بأخرى نظيفة؟

. اذهبي إلى غرفته يا "سمراء" واستدعيه.

. أمر مولاتي.

ما إن همت "سمراء" بالخروج من الغرفة حتى فتح كبير الأطباء الباب وقال موجها كلامه للأميرة "علياء":

. كيف حال الفتى سمو الأميرة؟

ردت بصوت تملؤه السعادة، فتح عينيه للحظات ثم غاب عن الوعي مرة أخرى.

ـ حسنا، سيدتي الجميلة، سيسترد وعيه في الغد على أقصى تقدير، سأعطيه جرعة الدواء الآن وأغير هذه الضمادات بأخرى.

ما إن أزال كبير الأطباء الضمادات من على كتف الفتى ونظر للجرح الغائر في كتفه حتى قال:

. حسنا.... حسنا.... لقد بدأ الجرح في الالتئام وتوقف النزيف تمامًا.

استدار إلى الخادمة "سمراء" وقال:

. عليك إطعامه ما إن يستفيق، لقد أبلغت كبيرة الطهاة بقائمة الطعام التي يجب أن يتناولها الفتى في وجباته الثلاث، وأوصيت بشرب الكثير من العصائر والسوائل، لأنها ستساعده على استرداد عافيته بسرعة.

نظر للأميرة "علياء" وقال:

ـ سانصرف الآن سيدتي، عليّ استكمال تجاربي في استخراج المادة التى حدثتك عنها قبلا، لقد اقتربتُ كثيرا من التوصل إليها، آمل أن أنجح في القريب في ذلك، لأنها ستخفف الكثير من آلام المرضى.

ابتسمت له الأميرة ابتسامة رضا، كأنما أرادت أن تجمع ما بين شكره على المجهود الذى يبذله لإنقاذ حياة الفتى وشكره على المجهود الذى يبذله في إجراء تجاربه للتخفيف من آلام المرضى.

بينما كان كبير الأطباء يتجه إلى باب الغرفة، نظرت الأميرة "علياء" إلى وجه الفتى الباسم الراقد على الفراش، وقالت تحدث نفسها:

. أشعر أنك جئت لتغير مجرى حياتي، إن قسمات وجهك لهي أكبر دليل على الأصل الكريم، رغم أن ملابسك تدل على بساطة حالك، أدعوا السماء أن تترفق بك، ليت أبي يدرك حقيقة ما أشعر به تجاهك، ليتك تدرك ما فعلته بي منذ أن اندفعت كالسهم وبيدك رمح، وجابهت ذلك الذئب.

ـ إني أسأل نفسي منذ أن وقع الحادث، لو كان الأمير "ثناء" مكانك، هل كان سيفعل ما فعلته أنت؟ وأين كان حينما صرخت بأعلى صوتي، أنا وخادمتي نستغيث ونطلب من ينقذنا لقد كان مشغولا عنا بتفاهاته، لقد حضر إلى مكان الحادث بعد أن رشق "مهاب" الذئب بالسهم.

شعرت الأميرة علياء بحركة يد الفتى على الفراش وهي تقترب من يدها وتلمسها برفق، لقد سرت رعشة أخرى في جسدها وهي تقف إلى جوار الفراش تحدق في وجه الفتى وتقارن بين ما فعله وما كان سيفعله الأمير "ثناء".

مدت الأميرة "علياء" يدها وأمسكت بيد الفتى ثم انحنت واقتربت بوجهها من وجهه حتى أنها كانت تشعر بأنفاسه وقالت بصوت خافت:

ـ ليتني أستطيع أن أفعل شيئا لك كما فعلت لي وأكاد أشعر بأن القدر قد بعثك لكي توقظ ذاك الوحش النائم بداخلي، لقد تسربت مشاعري من بين أضلعي كما يتسرب الماء من بين أصابعي، حتى أنني لم أعد أستطيع السيطرة عليها.

أنا حائرة، ليتك تستفيق من إغماءتك لكي تساعدني على أن أرفض بحزم الاستمرار في هذه الزيجة.

لقد سقت لأبي الأسباب كاملة ولكنه لم يتأثر ولم يغير رأيه حتى وهو يراني أبكي.

إن زواجي من الأمير "ثناء" محكوم عليه بالفشل وأخشى أن أدفع أنا ثمن هذا الفشل وأعيش طوال حياتي متزوجة من الأمير "ثناء" بجسدي فقط، أما مشاعري فهي لآخر.

منذ أن التقت نظرات عيني ونظرات عينيك وأنا أريد أن أصرخ بأعلى صوتي في وجه الأمير "ثناء" لن أقبل بك زوجًا، ثم أشير إليك وأقول بل أريد هذا، زوجا... وعشيقا.... وحبيبًا....

أريدك أنت.....

❊ ❊ ❊

الحقيقة

التفتت السيدة العجوز مرة أخرى إليّ بعد أن كانت مستغرقة في التفكير، وقالت:

. عفوا يا ولدي:

لقد عدت بالذاكرة إلى الوراء سنوات طوال، ثم عاودت النظر من الشرفة في اتجاه أسوار القلعة وقالت:

ـ أحيانا، أشك في أنه قد أصابتني لوثة من الجنون، وأن كل ما حدث، لم يكن سوى من نسيج خيالي، أعود فأرفض من داخلي هذا الشك، وأقول ربما يحاول عقلي البحث عن مخرج لما أنا فيه، لقد ملّ عقلي الانتظار، إنه ينتظر منذ سنوات مجيئه ومازال ينتظر إلى الآن، ولكنه كل فترة من الزمن يصور لي الأمر وكأنه من نسيج خيالي، حتى أستعيد عافيتي وأخرج من وحدتي.

بادرتها بالكلام:

. عفوا سيدتي، كل شيء حولي يؤكد بأن ما حدث كان حقيقة لا خيالا، هذه القلعة، الأسوار، الأبواب، هذه البلورة السحرية.

شعرت السيدة العجوز بالارتياح الشديد وقالت:

. في اللحظة التي كنت أتحدث فيها إلى الفتى بقلبي وبصوت خافت، فتح عينيه ببطء ثم أغلقهما مرة أخرى، ثم فتحهما مرة ثانية وهو يحرك يده

برفق على الفراش، ثم أمسك بأطراف أصابعي، ثم قال بصوت متقطع محاولا استجماع قواه، الذئب.. آلام في كتفي...

لم يُصب الرمح هدفه... قفز في الهواء... استطعت أن ألكمه في جانبه... سمعته يعوي... رأيته يقفز في الهواء قادما نحوي... أغمض الفتى عينيه مرة أخرى ثم راح في سبات عميق.

أشارت الأميرة "علياء" لخادمتها التي كانت تجلس في أحد أركان الغرفة، حضرت مسرعة وقالت:

. أمر مولاتي

. أسرعي إلى كبيرة الطهاة وأبلغيها قائمة الطعام التى أمر بها كبير الأطباء لتجهيزها، سيستعيد الفتى وعيه ما بين لحظة وأخرى، ساعديني أولا في رفع رأسه قليلا لأضع الوسادة تحتها.

. أسرعي الآن يا "سمراء".

. أمر مولاتي.

فتحت الخادمة باب الغرفة متجهة إلى حيث غرفة كبير الأطباء وأبلغته برسالة الأميرة "علياء" ثم انصرفت قاصدة المطبخ حيث توجد كبيرة الطهاة.

ظلت الأميرة "علياء" إلى جانب فراش الفتى وهي ممسكة بيده، وتضع يدها الأخرى على جبهته، تحاول أن تنبهه لكي يفتح عينيه مرة أخرى.

لحظات ثم بدأ الفتى يتأوه ثم فتح عينيه وقال بصوت واهن:

. إن كتفي يؤلمني كثيرا، أشعر بأنه قد انفصل عن جسدي.

ـ حمدًا للقدير على عودتك للحياة، لقد أبليت بلاءً حسنا، دافعت عني بشراسة لم أعهدها من قبل، استطاع الذئب التغلب عليك في النهاية، ولكن يكفي أنك استطعت الوقوف أمامه وأنقذتني.

ـ كنت أحسب سيدتي أني كنت أعيش كابوسًا بكل تفاصيله، ولكن ما تقولينه يؤكد أن ما حدث لم يكن سوى حقيقة، أحمد القدير أنني استطعت أن أنقذك من هذا الوحش الكاسر.

حضر كبير الأطباء إلى غرفة الفتى وما إن فتح الباب واقترب من الفراش، حتى وجد الفتى جالسًا فقال له متهللا:

ـ حسنا... حسنا.... أيها البطل الشجاع، لم أرَ هذه الشجاعة من قبل، لقد تصديت لذئب جائع وأنت أعزل إلا من رمح، أشعر بالفخر وأنا أطببك.

. أعتذر لك سيدي، عما سببته لك من متاعب ومشاق.

ابتسم كبير الأطباء ونظر للأميرة علياء وقال:

. يا ولدي سمو الأميرة هي من يستحق الشكر، لقد بذلت المجهود الأكبر في علاجك، عليك أن توجه لها كل الشكر هي من أنقذت حياتك بعد أن أنقذت أنت حياتها.

لقد ظلت الأميرة طوال الليل إلى جانب فراشك لتطمئن على سلامتك، هي الأحق مني بالثناء.

نظر الفتى إلى الأميرة "علياء" فوجدها مبتسمة وهي تمسك بيده، ضغط برفق على أصابعها وقال لها:

. أعتذر لك سمو الأميرة عما سببته لك من تعب وإرهاق.

سأله كبير الأطباء:

. ما اسمك يا ولدي؟

"شهاب " سيدي.

. عليك الآن يا "شهاب" أن تتجرع الدواء في موعده حتى يلتئم الجرح.

ومتى أستطيع العودة إلى الديار؟

نظر كبير الأطباء للأميرة "علياء" وقبل أن يجيب على سؤاله، أسرعت قائلة، ليس الآن يا "شهاب"، ستكمل العلاج أولا في القصر، لن يتحمل جسدك عناء الرحيل.

حاول كبير الأطباء إخفاء دهشته، وتعمد ألا ينظر إلى عينى الأميرة وقال في نفسه:

ـ إن الفتى أثار إعجاب الأميرة، كنت أحسب أن اهتمامها من باب رد الجميل، ولكن لا !!! لم أرَ سمو الأميرة شديدة الاهتمام بأحد كما أراها الآن، حتى مع من يحاولون التودد إليها.

كرر "شهاب" سؤاله لكبير الأطباء، سيدي متى أستطيع العودة إلى الديار؟ تركت أبي في الدار وحيدا، وهو شيخ طاعن في السن، ويحتاجني إلى جانبه لرعايته، وقبل أن أغادر الدار إلى الغابة قلت له وأنا أقبل جبينه:

. لن أتأخر يا أبتي.

ـ ستعود يا بني، لمَ العجلة؟ لقد قالت الأميرة لن تغادر القصر قبل إتمام الشفاء.

❊ ❊ ❊

مرض الملك

اتجهت أنظار الأميرة "علياء" وكبير الأطباء و"شهاب" صوب باب الغرفة بعد أن سمعوا طرقا متواصلا عليه، أسرعت "سمراء" إلى الباب، وما إن فتحته حتى دخل الخادم الخاص بالملك وقال وهو يتلعثم من أثر الهرولة في البهو من الجناح الرئيسي الخاص بالملك إلى غرفة "شهاب":

. سيدي كبير الأطباء، مولاي الملك في حاجة إليك!!!

صرخت الأميرة في جزع.... أبتي، ثم أسرعت تجري إلى غرفة نوم الملك وتبعها كبير الأطباء إلى الخارج وهو يقول:

ـ سأحضر قارورة الأعشاب من غرفتي لتساعد في تخفيف ذلك الألم الرهيب.

ظلت "سمراء" إلى جانب "شهاب" في غرفته، تلبية لرغبة الأميرة "علياء" ما هي إلا ثوان حتى دخلت كبيرة الطهاة، ومن ورائها وصيفة تدفع عربة خشبية صغيرة وعليها مجموعة من الأطباق والحساء الذي أمر كبير الأطباء بتجهيزه ل"شهاب"

ما إن وضعن العربة الخشبية إلى جوار الفراش الذي يرقد عليه "شهاب" وخرجن من الغرفة حتى نظر إليها بتفحص وقال:

ـ حقا يا "سمراء" ما قاله كبير الأطباء عندما وصف مشاعر القلق التي سيطرت على الأميرة "علياء" حينما رأتني غارقا في الدماء؟

. بل أكثر من هذا سيدي!

. حينما اندفعت أنت من بين الأشجار كسهم انطلق، ووصلت إلى الأميرة قبل أن يفتك بها الذئب، ووقفت حائلا بيننا وبينه، ممسكا برمحك وملوحا به في الهواء، وبعد أن دار صراع بينكما، وانتهى بأن أطبق فكيه على كتفك.... انهارت الأميرة "علياء" وهي تراه وهو يحاول أن يسحب جسدك بين الأشجار وأنت فاقد الوعي ليجهز عليك، أخذت الأميرة تصرخ بأعلى صوتها، ولما سمع الملك صوت صراخنا، حضر ومعه حارسه "مهاب" الذي رشق الذئب يسهم فقتله في الحال، حملك الحارس ووضعك في العربة الملكية، لنقلك للقصر لعلاجك.

أصرت الأميرة على اصطحابك، جلست إلى جوارك، وضعت رأسك على قدميها، ووضعت إحدى يديها على جبهتك والأخرى على كتفك في محاولة لوقف نزيف الدماء.

تحركت العربة ببطء في البداية، نهرت السائق بشدة وطلبت منه الإسراع.

. عفوا مولاتي، الضباب كثيف ولا تكاد الخيول ترى أمامها.

ـ ألم نسلك هذا الطريق مرات ومرات من قبل، والخيول تحفظه عن ظهر قلب، أسرع فحياة الفتى في خطر.

ـ مولاتي، أخشى إن أسرعنا أن تنفصل إحدى عجلات العربة، فنلقى حتفنا، إني مولاتي لا أخشى على نفسي بل عليك أنت.

. قلت لك أسرع!!!

ـ عفوا مولاتي، الضباب كثيف، المطر ينهمر بقوة، الأرض موحلة، البرق يكاد يشق السماء، الرعد يصدر صوتا مرعبا، الخيول منهكة، أكاد أرى الذعر في أعينها.

خرجت الأميرة من الكابينة الخلفية المخصصة لها، جلست إلى جانب السائق، أمسكت باللجام في يد وبالأخرى أمسكت بالسوط، صرخت في الخيول صرخة مدوية، وألهبت ظهورها بالسوط مرات ومرات محدثة فرقعة هائلة شعرت ساعتها سيدي أن مولاتي قد أصابها مس من الجنون، أعرف أن مولاتي رابطة الجأش قوية كأبيها، ولكني كنت أسمع أزيز العجلات، وكنت أشعر بأنها على وشك الانفصال عن العربة، بسبب السرعة التي كانت تقود بها مولاتي العربة، ما إن وصلنا إلى هنا سيدي حتى وقفت إلى جانب كبير الأطباء وهو يقوم بخياطة جراحك الغائرة بعد انصراف كبير الأطباء، جلست على ذاك الكرسى وأشارت إلى كرسي هزاز في أحد جوانب الغرفة، كانت تقوم من عليه كل بضع دقائق لتباشر حالتك وتطمئن على صحتك.

. إذن، أنا مدين لها بحياتي يا "سمراء"

ـ حقا سيدي، لم أر مولاتي الأميرة شديدة الاهتمام بأحد من قبل كما شاهدتها خلال اليومين الماضيين. لقد رأيت دموعها سيدي وهي جالسة على هذا الكرسي، خوفا عليك.

وصلت الأميرة "علياء" إلى غرفة نوم أبيها، ما إن رآها الحاجبان آتية حتى أسرعا بفتح الباب، قصدت فراش أبيها، فوجدته نائما على جانبه الأيمن وهو يضغط بيده بقوة على بطنه وجبينه يتصبب عرقا ويقول:

. تبا لهذا الألم، أشعر وكأن أحشائي تتمزق.

حينما لمح بطرف عينه الأميرة وهي تقترب من فراشه، حاول أن يتماسك وسألها:

. أين كبير الأطباء بنيتي؟

ـ لقد ذهب إلى غرفته لإحضار دوائك، الذي يخفف الآلام التي تهاجمك على فترات.

في تلك اللحظة، دخل كبير الأطباء وهو ممسك بقارورة وقال:

. ها أنذا مولاي، آمل أن تخف حدة الألام ما إن تتناوله.

أمسك الملك بقارورة الدواء ثم شرب ما فيها جرعة واحدة ثم أعطاها لكبير الأطباء وهو يقول:

. ألم تستطع بعد أن تتوصل إلى أسباب الآلام التي تهاجمني على فترات؟

مازلت أحاول مولاي، أنا على يقين أني سأتوصل إلى علاج شاف في القريب العاجل .

❊ ❊ ❊

خدعني أبي

جلست الأميرة "علياء" في الفراش إلى جانب أبيها محاولة تخفيف الألم عنه بمداعبته

قائلة وهي تضع أطراف أصابعها بين شعيرات لحيته:

ـ أريد أن أحصي عدد هذه الشعيرات يأبتي كما كنت أفعل وأنا طفلة صغيرة.

حاول الملك أن يخفي آلامه بابتسامة وقال:

ـ حقا بنيتي، لم يكن يجرؤ أحد على إيقاظي من نومي سواكِ، كنت تدخلين غرفتي هذه على أطراف أصابعك... تصعدين إلى الفراش بخفة وتقبليني في وجنتي، ثم تبدئين في عد وإحصاء شعيرات لحيتي، أريد أن أطلعكِ على سر يا ابنتي الحبيبة، كنت أدعي أنني نائم حتى لا أفسد عليك متعتك في إحساسك بأنك فاجأت أباكِ.

ضحكت الأميرة بصوت عالٍ وقالت:

ـ حقا هذا يا أبتي، لا أكاد أصدق، لقد كنت تسخر مني طوال هذا الوقت وأنا كنت أظنك نائما؟

ضحك الملك وقال:

. أحمد القدير، لقد بدأ الآلم في الزوال.

. أتأذن لنا بالانصراف يا أبتي؟

أشار الملك برأسه علامة على الإيجاب.

خرجت الأميرة ومن ورائها كبير الأطباء وما إن وصلا إلى البهو، حتى توقفت عن السير ثم استدارت وقالت له:

ـ أشعر بالقلق حيال الآلام التي تهاجم أبي، نوبات الألم هذه كانت تهاجمه على فترات متباعدة والآن أصبحت تهاجمه مرة كل يوم، ألا من دواء شافٍ لها؟

ـ عفوا مولاتي، إني أبذل قصارى جهدي متنقلا ما بين القراءة في كتب الأقدمين عن أسرار الأعشاب وما بين تجاربي لاستخراج مادة فعالة للقضاء عليها.

ـ من في القصر على علم بمرض أبي وبأن الآلام تهاجمه كل يوم تقريبًا.

ـ ثلاثتنا سمو الأميرة.

ـ لا أريد أن يعلم بأمرها أحد.

ـ بالتأكيد سمو الأميرة، أخشى أن تهاجمه الآلام خلال رحلات الصيد أو خلال متابعته لشئون المملكة.

ـ سمعا وطاعة.

ـ أعرف أن أبي يجلك كثيرًا، ويثق فيك ثقة عمياء.

ـ نعم أعلم ذلك وأقدره وسأسعى جاهدا للتوصل لأسباب هذه الآلام.

استأذن كبير الأطباء في الانصراف منحنيا انحناءة خفيفة ثم انصرف إلى غرفته

وقالت الأميرة:

ـ عما قليل سيزول الألم نهائيا يا أبتي.

فتح الملك عينيه ونظر بحب للأميرة وقال:

ـ لم نفرغ بعد من الحادث الذي كاد أن يودي بحياتك، ثم هاجمتني الآلام مرة أخرى، لقد أصبحت تهاجمني كل يوم تقريبًا.

ـ لقد قال كبير الأطباء إن السبب ما زال مجهولا ولكنه يبذل أقصى طاقته ياأبتي.

أرادت الأميرة "علياء" أن تخفف من وطأة الآلام أبيها بالحديث في موضوع آخر فقالت:

ـ لقد تجاوز الفتى المرحلة الأخطر، ولقد أكد كبير الأطباء أنه سيتعافى خلال أيام.

. هل علمت من هو؟ وماذا كان يفعل في هذا المكان؟

ـ هو ابن حطاب وصائد للظباء، حينما سمع صوت صراخنا أنا و"سمراء" أسرع بالقدوم.

. لقد أظهر شجاعة نادرة بنيتي، ألم يتحدث بعد عن عائلته؟

ليس بعد، لقد طلب منه كبير الأطباء التزام الصمت حتى يتعافى.

ـ أتمنى ألا تهاجمني الآلام مرة أخرى خلال حفل خطبتك، فتجهيزات الحفل تمضي على قدم وساق.

لمح الملك تغير وجه الأميرة وامتعاضها، فتأكد بما لا يدع مجالا للشك، أنها ما زالت عند رأيها، هي لا تريد لهذه الزيجة أن تكتمل، فهي ترى أنها فشلت قبل أن تبدأ في أولى خطواتها.

أراد الملك أن يُسري عن ابنته فبادرها بالقول:

ـ لقد أبلغت الأمير "ثناء" ووالده أن نكتفي في هذا الحفل بخطبتكما فقط على أن يكون حفل الزفاف في الصيف القادم، إن استطاع الأمير الفوز بقلب الأميرة.

بدا على وجه الأميرة الارتياح الشديد مما قاله أبوها وقالت في نفسها:
ـ حسنا، لقد تراجع أبتي خطوة إلى الوراء، هذا ما كنت أتمناه، لقد جعل زواجي مشروطا بالفوز بمشاعري، التي استحوذ عليها غيره.
ابتسمت الأميرة لما شعرت أن أباها قد بدأ يدرك حقيقة مشاعرها السلبية تجاه الأمير "ثناء"، وأنه لن يفرض عليها الزواج منه قبل أن تعلن موافقتها الكاملة عليه.
أيقن الملك أن كلماته عن تأجيل الزفاف إلى الصيف القادم قد لاقت قبولا من الأميرة، فداعبها قائلا :
ـ على سمو الأميرة أن تأمر وعلينا جميعا الطاعة، سأخلد إلى الراحة، لديّ عمل كثير هذا اليوم.
خرجت الأميرة من حجرة نوم أبيها متوجهة إلى غرفة "شهاب" ولما وجدته جالسا في الفراش ابتسمت وقالت:
. ستبدأ في التريض من صباح الغد.
. أمر مولاتي.
ـ عليك بالراحة الآن، قبل التريض غدا سأصحبك إلى أبي في جناحه الخاص لكي يطمئن عليك
. سمعا وطاعة سمو الأميرة.

❊ ❊ ❊

الأمير.... الحطاب

في صباح اليوم التالي، استيقظت الأميرة "علياء " مبكرًا كعادتها ثم توجهت إلى غرفة "شهاب" بدت عليها علامات الدهشة لما لم تجده في فراشه، ساورها الشك في أن يكون قد رحل بعد أن شعر أن حالته قد تحسنت وبأنه أصبح على ما يرام، لقد سأل كبير الأطباء بإلحاح أن يأذن له بالرحيل!!!

أسرعت الأميرة بالخروج من غرفة "شهاب" وسألت الحارس بلهفة:

. أين ذهب الفتى؟

. إنه يتريض في حديقة القصر مولاتي.

بدت مشاعر الارتياح على وجه الأميرة وأسرعت تنزل درجات السلم متوجهة إلى الحديقة الرئيسية للقصر، وما إن وقعت عيناها على الفتى حتى ابتسمت.

أسرعت الأميرة الخُطا، تريد اللحاق بالفتى وهو يتريض في الحديقة، أتت من خلفه ثم سارت إلى جانبه وقالت:

. أنت اليوم في حال أفضل بكثير من الأمس.

التفت إليها "شهاب" وقال:

. الفضل لك سمو الأميرة، لقد حدثتني "سمراء" عما فعلتِه لى طوال فترة مرضي، أعتذر لك سيدتي مرة أخرى.

ـ لا نريد أن نضيع يومنا في كلمات الاعتذار، أبي في انتظارك، يريد الاطمئنان عليك.

. سمعا وطاعة سمو الأميرة.

اصطحبت الأميرة "شهاب" إلى الجناح الخاص بأبيها، ما إن رآها تدخل عليه وتبدو على وجهها علامات السعادة، حتى بادرها قائلا وهو يفتح ذراعيه عن آخرهما كعادته كلما التقاها:

. أرى أن مزاج الأميرة قد اعتدل أخيرًا.

ـ صباح الخير أبتي، وهي تتوجه إليه لتحتضنه، لقد أحضرت معي "شهاب" لتطمئن عليه بنفسك، إنه ينتظر بالخارج.

ـ حسنا... دعيه يدخل في الحال، أريد أن أجزل له العطاء وأشكره على إنقاذ حياة ابنتي الجميلة.

أسرعت الأميرة تفتح باب الغرفة وهي تبتسم لـ "شهاب" وتقول:

. تفضل، والدي في انتظارك.

دخل "شهاب" وهو مبتسم، ولما اقترب من مكان جلوس الملك، انحنى إجلالا وتوقيرا وقال:

. أمر مولاي.

. لقد قمت بعمل جليل يا بني، اطلب ما تشاء، لقد ترفق بنا القدر كثيرًا بأن ساقك إلى هذا المكان في هذه اللحظة. ماذا كنت تفعل هناك؟

. كنت أصطاد الظباء.

. وهل اصطدت شيئا قبل وقوع هذا الحادث المشئوم؟

. ليس بعد مولاي! لم أكن انتهيت بعد من نصب كل الفخاخ.

. اطلب ما تشاء

. عفوا مولاي، أطلب رضاءك، لم أفعل شيئا يستحق المكافأة، لقد قمت بواجبي في الدفاع عن إنسان ضعيف يتعرض لهجوم من حيوان ضارٍ.

. وهل كنت تعلم أنها الأميرة "علياء"؟

. لا مولاي.

أدرك الملك في تلك اللحظة ما كان يريد أن يستوضحه من إجابات الأسئلة التي طرحها على "شهاب"، عندما اندفع الفتى لينقذ الأميرة لم يكن يعلم بحقيقة أمرها، وبالتالي فهو لم يفعل ذلك للحصول على مكافأة، فعل ذلك بدافع نصرة الضعيف، وهذا يؤكد المعدن الأصيل لهذا الفتى.

انتبه الملك على سؤال الفتى.....

ـ إن كان لى مولاي أن أطلب شيئا، أريد أن أعود إلى داري، تركت أبي وحيدا منذ يومين، أريد أن أطمئن عليه.

. ما هي صنعة أبيك؟

. إنه حطاب مولاي.

. إذن ليذهب كبير الحراس لإحضاره الآن، التفت الملك إلى الأميرة "علياء" وقال:

. يتم تجهيز المبنى الملاصق للقصر لإقامة الأمير "شهاب" ووالده.

لم تتمالك الأميرة نفسها من السعادة وقالت :

ـ لقد أنعم مولاي الملك عليك بلقب "أمير"، وكلام الملوك لا يرد، هنيئا لك، سمو الأمير "شهاب"

قاطعها الملك قائلا :

. إن المملكة تحتاج لأمثالك يا بني، سوف يقوم أفضل الفرسان وأبرعهم بتدريبك على فنون القتال المختلفة، المبارزة بالسيف، رشق السهام، ركوب الخيل، المصارعة بالجسد، وغيرها الكثير.

اقترب الملك خطوة من الأمير "شهاب" ووضع يده على كتفه وقال:

هذا البنيان وأشار إلى جسد "شهاب" يصلح حتما كفارس، وشجاعتك في إنقاذ الأميرة "علياء" لهي أصدق دليل على كلامي، ما إن يكتمل شفاؤك ستبدأ في التدريب على فنون القتال.

. أيأذن لي مولاي الملك بالحديث؟

أشار له برأسه علامة على الإيجاب.

. عفوا مولاي، أنا لم أعتد هذه الحياة، أنا ابن حطاب، وأقضي يومي في البحث عن قوت يومي وقوت يوم أبي إما بصيد الغزلان والأرانب البرية وإما بقطع الأشجار ثم نقلها إلى حانوت أبي ليبيعها في السوق، أنا لم أعتد حياة الفرسان وارتداء الدروع والقتال والمبارزة ورشق السهام وغيرها مولاي، كل ما أقوم به هو نصب الشراك في الغابة للأرانب البرية، أو اصطياد الغزلان.

. هذا عهد قد ولى وانتهى يا بني، من الآن سيوفر لك القصر ما تحتاجه، سيكون لك في المستقبل مهام أخرى، أنبل كثيرا مما تقوم به الآن، ستكون فارسا، مبارزا من طراز فريد أنا أعرف جيدا كيف أختار فرساني.

أحست الأميرة "علياء" بالرغبة في التدخل في الحديث قبل أن يستفيض "شهاب" في الدخول في تفاصيل كثيرة ليس لدى الملك الرغبة في سماعها،

قالت بسرعة وقبل أن يتفوه "شهاب " بكلمة أخرى، أيأذن لنا جلالة الملك بالانصراف؟

. نعم بنيتي.

خرجت الأميرة "علياء" والأمير "شهاب" من جناح الملك وهي تدرك جيدًا أن أباها أُعجب كُثيرا بـ"شهاب"، لقد أنعم عليه بلقب الأمير ووفر له الإقامة الكاملة له ولأبيه، هي بالتأكيد ستراه كثيرا الآن.

❊ ❊ ❊

الصياد والفريسة

عاد الأمير "شهاب" إلى غرفته، وما إن دخلها حتى اتجه إلى فراشه، ألقى بجسده عليه ثم بدأ في استعادة ذكريات ماضيه، قفزت إلى ذاكرته صورته وهو طفل صغير يلهو مع أقرانه ثم وهو يبكي بعد أن ماتت أمه، تذكر أيضا مرافقته لأبيه في جولات الصيد التي كان يقوم بها.

تذكر "شهاب" وهو نائم على فراشه ونظره متجه إلى سقف الغرفة، كيف كان أبوه يعلمه صيد الظباء عن طريق اختيار المكان المناسب الذي تمر فيه وهو منحدر بين التلال ثم يقف فترة طويلة لا يحرك فيها ساكنا.

في أول مرة اصطحبه فيها أبوه، بعد إلحاح شديد منه، طلب منه أبوه الوقوف ساكنا، ولكن لصغر سنه وقلة خبرته، تحرك قليلا ثم وطأ بقدمه الصغيرة على أوراق شجر جافة، فأحدثت صوتا، سمعته الظباء وفرت هاربة من المكان، حينئذ لم ينهره أبوه بل قال له:

- عليك أن تتبع أسلوب النمر وهو يستعد للركض خلف الفريسة، إنه يقترب منها في حذر وبطء ولا يصدر صوتا البتة، إلى أن يصبح قاب قوسين أو أدنى منها، في هذه اللحظة يا ولدي ينطلق كالسهم في اتجاهها ثم ينقض عليها ولا يتركها إلا جثة هامدة.

هو يتذكر جيدا أول مرة يذهب فيها إلى الغابة، كانت الدار خاوية من الزاد وأبوه مريض، لقد اشتدت عليه الحمى، لم يكن "شهاب" قد

تجاوز الحادية عشرة، ويريد أن يخرج للصيد، قال أبوه في صوت ضعيف وواهن:

- لن تستطيع وحدك يا بني، مازلت صغيرًا، هذا العمل يحتاج إلى صبر وجلد وأنت لم تنضج بعد.

- لا يأبتي، عليّ من الآن أن أعتمد على نفسي في اصطياد الفرائس، أنت مريض وتحتاج إلى بضعة أيام حتى تشفى، لقد حان دوري الآن يا أبتي، سوف أتحرك بعد شروق شمس الغد ولن أتأخر.

عليك بالحذر يا بني من الفخاخ المنصوبة في الغابة.

لم ينم "شهاب" ليلته، بل استمر في تجهيز ما يحتاجه من أدوات الصيد، فخاخ تصلح لصيد الأرانب البرية، وأخرى أكبر حجما تصلح لصيد الثعالب، ووضع السهام في جرابها، وحبال مجدولة، صنعها من الفروع الجافة لشجر اللبلاب.

جلس على الأرض إلى جوار فراش أبيه وأخذ يربط الحبال بعضها ببعض حتى صارت تشبه شباك صيد السمك، ولكن فتحاتها أكبر بكثير.

فتح أبوه عينيه بصعوبة، فرأه جالسا إلى جوار الفراش، فسأله:

- ماذا تفعل يا بني؟

- أقوم بربط الحبال على هيئة شباك صيد السمك، لقد طرأت على رأسي فكرة، وأريد أن أختبر جدواها غدًا خلال رحلة الصيد.

- سوف أقوم بربط الحبال بين الأشجار ثم أطارد الفريسة حتى تجرى في اتجاه الحبال، وبسبب سرعتها في الركض خوفا مني، لن ترى الشباك المنصوبة بين الأشجار، وما إن تشتبك قرونها في فتحات الشباك لن تستطيع الخلاص منها وكلما حاولت الهرب تعلقت بها أكثر فأكثر....

في هذه اللحظة سأرشقها بسهم يصرعها في الحال.
ـ وهل ستجدى يا ولدي هذه الطريقة؟ لم أسمع بها من قبل، كنا في الماضي ننصب الفخاخ ثم نمر عليها ثانية بعد يوم أو أكثر لنرى الفريسة التى أوقعها حظها العاثر في الشرك.
ـ أريد أن أجرب هذه الطريقة يا أبتي، لقد كنا ننتظر ساعات وساعات وقوع الفريسة في الشرك، ولكن الآن أريد أن أحاصر الظباء ثم أدفعها في اتجاه الشباك.
ـ كل ما كنا نفعله في السابق هو الانتظار، أما الآن، أريد أن أبدأ بالهجوم.
ـ حسنا يا ولدي، فليوفقك القدير.

حتى هذه اللحظة كان وجه السيدة العجوز يتهلل فرحا كلما جاء ذكر حبيبها "شهاب"، وكان يعلو قسمات وجهها الجمود، كلما ذكرت الأمير "ثناء" أو حفل خطبتها منه، وفي أحيان أخرى كانت تتلألأ في عينها الدموع، وبالتحديد حينما كانت تتحدث عن "شهاب" وهو بين الحياة والموت بعد أن أطبق الذئب بفكيه على كتفه كان وجه السيدة العجوز يتغير كثيرًا وهي تسرد تفاصيل قصتها مع حبيبها "شهاب".
في بداية لقائي بها لم أكن أهتم إلا بشيء واحد فقط، هو الإجابة عن سؤالي، هل رأت في الجوار حبيبتي التي اختفت فجأة؟ وأين أجدها؟
ولكن بعد أن استمرت في سرد قصتها، أشفقت عليها مما عانته، لقد تعلقت بفتى إلى حد الهوس وهي مقبلة على الزواج من آخر على وشك

أن يسقط من ذاكرتها للأبد شعرت السيدة العجوز بما يدور في خلدي من تساؤلات عن نهاية قصتها.

تدافعت التساؤلات إلى ذهني كالطوفان، تُرى ماذا حدث، هل تزوجت من الأمير "شهاب"؟

لقد زالت أولى العقبات من طريقهما بعد أن أنعم أبوها عليه بلقب الأمير.

أم هل أذعنت أخيرًا لرغبة أبيها وتمت خطبتها إلى الأمير "ثناء"؟ رغم أنها لم تكن تشعر تجاهه بأي عاطفة تساعدها على الزواج منه.

وهل آلام الملك والتي كانت تهاجمه تقريبًا كل يوم هي لمرض عضال؟ أم استطاع كبير الأطباء التوصل لعلاج شافٍ لها؟

رفعت السيدة العجوز يدها اليمنى من على مسند كرسيها الهزاز وربتت على يدي التي كنت أضعها على كتفها الأيسر وأنا أقف خلفها وقالت:

وضع "شهاب" كلتا يديه خلف رأسه، ونظر إلى سقف غرفته وقال:

هل من الممكن أن تتحول الأحلام إلى حقيقة؟ هل من الممكن أن تتفوق الحقيقة على الأحلام؟ لم يرد على خاطري لحظة واحدة أني سأقابل مولاي الملك في يوم من الأيام، بل الأكثر من هذا لقد أنعم علي بلقب أمير، يا لها من مفاجأة مذهلة.

❊ ❊ ❊

مشيئة الأقدار

لم أرد أن أقطع عليه لحظات النشوة التي كان يعيشها فقلت في نفسي: عليّ الانصراف الآن، لدي الكثير من المهام، سوف أبعث بكبير الحراس إلى دار "شهاب" لإحضار أبيه للإقامة في المبنى الملاصق للقصر.

خرجت بسرعة من غرفة الأمير "شهاب" قاصدة غرفتي ثم أمسكت بجرس صغير وما إن قمت بهزه في الهواء حتى دخلت خادمتي المخلصة "سمراء" وقالت:

. أمر مولاتي.

أردت أن أتحدث إلى كاتمة أسراري قلت لها:

. أغلقي الباب خلفك بسرعة، اقتربت منها ثم أمسكت كتفيها بكلتا يدي.

ـ هل تستطيعين أن تصدقي ما حدث؟ لقد أنعم عليه أبي بلقب الأمير، بل أكثر من هذا، لقد أمر أبي بأن يتم إعداد المبنى المجاور للقصر فورًا لإقامة "شهاب" وأصدر أوامره لقائد الفرسان بتعليمه فنون القتال ما إن تلتئم جراحه ويستعيد عافيته، لقد أتت الرياح بما تشتهي السفن يا "سمراء".

. حقا يا مولاتي، هذه أخبار جميلة.

ـ أبلغي الخدم بتنفيذ أوامر الملك في الحال، على أن يكون المبنى جاهزًا لاستقبال الأمير "شهاب" وأبيه خلال أيام.

. سمعا وطاعة مولاتي.

أسرعت "سمراء " بالخروج من جناح الأميرة "علياء" متجهة إلى غرفة كبير الخدم.

ما إن خرجت الأميرة "علياء" والأمير "شهاب" من غرفة الملك حتى قام من مقعده، ثم عقد يديه خلف ظهره وأخذ يتحرك في جناحه جيئة وذهابا وهو يقول من المستحيل أن تكون هذه مجرد مصادفة!!! هل من الممكن أن يكون هذا الفتى هو ابن الحطاب الذى التقيته بعد أن تنكرت في زى العامة ونزلت إلى السوق لأتابع أحوال الرعية بنفسي، لو صح ذلك فسيكون لهذا الفتى بيننا شأن كبير، في اللحظة التي أعجبت فيها بصراحة أبيه في الحديث عن البسطاء في المملكة وعن محاولات المحيطين بي في رفع جدار عالٍ بيني وبين شعبي أنقذ ابنه الأميرة "علياء" من موت محقق.

أمسك الملك بالجرس وهزه في الهواء، وما إن أصدر رنينه المعتاد، حتى دخل على الفور حارسه "مهاب"

. أمر مولاي.

. أرسل في طلب قائد الفرسان.

. سمعا وطاعة.

ما هى إلا دقائق معدودة حتى استأذن قائد الفرسان في الدخول، وقال وهو ينحنى تحية للملك:

. أمر مولاي.

. سوف تشرف بنفسك على تدريب الأمير "شهاب" على فنون القتال، على أن يبدأ التدريبات فور أن تنتهى مرحلة الاستشفاء، أريد ان أسمع غداة كل تدريب عن مدى استيعابه لفنون القتال.

. سمعا وطاعة مولاي.

استدار الملك، فأدرك كبير الفرسان أن اللقاء قد انتهى، فأسرع بالخروج من جناح الملك.

أخذ الملك في جذب شعيرات لحيته برفق وهو يقول بصوت مرتفع قليلا وقد أخذته الدهشة:

هناك شيء ما غامض في هذا الفتى، علامات الإصرار على وجهه، بنيانه القوى بالفطرة

سرعة رد فعله، شجاعته، إصراره، صراحته. عما قليل سأعرف إن كنت على حق في اهتمامي به أم لا.

توجه الملك إلى مقعده الوثير في إحدى جوانب جناحه ثم هز الجرس قليلا، فدخل حارسه "مهاب "

. أمر مولاي.

. ما إن يتم قائد الحرس مهمته ويأتى بوالد الفتى، حتى يمثل بين يدي في الحال.

. سمعا وطاعة.

ثم قال همسا، أريد أن أعرف ماذا سيفعل ما إن يعلم أن الملك يريد رؤيته .

أسرع قائد الحرس على رأس قوة صغيرة إلى دار الأمير "شهاب "

طرق الباب، فسمع صوتا ضعيفا آتيا من الداخل يتسأل:

. من بالباب؟

. قائد حرس القصر الملكى.

. حقا؟ وماذا تريد؟

. ائذن لي سيدي بالدخول، أحمل رسالة من الملك!!!

. حقا يا ولدي؟ رسالة من الملك لي أنا؟ ادفع الباب قليلا ثم ادخل.
دخل قائد الحرس، فوجد والد الأمير "شهاب" نائما على الفراش وهو يتأوه بصوت واهن.
. ما بك سيدي؟
ـ مريض يا ولدي، كما ترى لا أستطيع الحركة، لقد وهن العظم مني، من شدة الألم لم أستطع الذهاب إلى حانوتي منذ أن غادر ولدي الدار، ولكن ما هي الرسالة التى تحملها يا ولدي؟
. سيجزل مولاي الملك لك العطاء، لقد أبلى ولدك "شهاب" بلاءً حسنا، أنقذ الأميرة "علياء" من موت محقق، فأنعم عليه مولاي الملك بلقب أمير ثم أهداه دارًا ملاصقة للقصر وعهد لقائد الفرسان بتدريبه على فنون القتال.
. ولكن أين "شهاب" يا ولدي؟ أأصابه مكروه؟
ـ لقد أصيب خلال محاولته إنقاذ الأميرة "علياء" وهو حاليا يتلقى العلاج، وحالته تتحسن يوما بعد يوم.
. أحمد القدير على نجاته، منذ نعومة أظافره، وأنا أشعر بأنه سيكون له شأن كبير، سآتي معك لأطمئن على ولدي.
وصل قائد الحرس للقصر وبصحبته والد "شهاب"، أسرع بالصعود لغرفة الأمير "شهاب" ليبلغه بأن أباه قد أتى للاطمئنان عليه.
قفز "شهاب" من الفراش وأخذ يعدو متحاملا على نفسه في اتجاه درجات سلم القصر قاصدًا النزول إلى القاعة الصغرى في البهو.
انحنى "شهاب" يقبل يد أبيه، وقال:
. أحمد القدير يا أبي أنك بدأت في التعافي.

اصطحب الأمير"شهاب" أباه إلى غرفته ثم قص عليه ما حدث خلال الأيام الماضية من إنقاذه للأميرة "علياء" إلى لقائه بالملك الذي أنعم عليه بلقب أمير، إلى تخصيصه دارًا جديدة، وما إن انتهى من سرده حتى دخل قائد الحرس وقال:

. مولاي الملك ينتظركما.

ما إن دخل الأب إلى جناح الملك حتى قال وهو ينحني:

. أشكر مولاي على عطفه وعلى عطاياه.

ـ ولدك يستحق الكثير والكثير، أنقذ حياة الأميرة، أظهر شجاعة نادرة وعرَّض حياته للخطر.

ـ لم يفعل مولاي إلا ما اقتضته الرجولة، لقد كان في صغره يلهو مع أقرانه، ودائما ما كان يدافع عن الضعيف منهم.

. حسنا.... حسنا.... ستنتقل أنت والأمير "شهاب" للإقامة هنا.

. أيأذن مولاي لي بالكلام؟

فأشار بالإيجاب.

. أرغب مولاي في العودة لداري، لا أريد أن أفارقها، أما "شهاب" فيمكنه الإقامة فيها ليكون قريبا من مولاي الملك، أما أنا فلي تجارتي.

اندهش الملك من إجابة الأب وقال:

. هذا أمر مدهش، أترفض الإقامة في القصر وتفضل عليها الإقامة في دار بسيطة ؟

ـ عفوا مولاي، كان "شهاب" سيفارقني حتما في يوم من الأيام، وإن لم يحدث، كنت سأفارقه أنا، لقد أصبح شابا فتيا الآن وقد عودته الاعتماد على ذاته.

تناول الملك صرة من الدراهم الذهبية وأعطاها لوالد "شهاب" وهو يبتسم وقال في نفسه:

كنت أعلم أنه سيرفض ترك داره، ثم أشار لقائد الحرس باصطحاب الأب إلى داره.

❊ ❊ ❊

الحب من الوهلة الأولى

قالت السيدة العجوز لي: اخفض رأسك يا ولدي، أريد أن أريك شيئا!!! ولما فعلت، أشارت بإصبعها خارج شرفة الغرفة وقالت:

. أترى هذا المبنى؟

. نعم سيدتي.

. هو الذي كان يقيم فيه الأمير "شهاب"

. أترى الشرفة الثالثة إلى اليمين؟

. نعم أراها بوضوح.

ـ هى شرفة غرفة نومه، كان يجلس فيها كل صباح، قبل أن يبدأ تدريباته على فنون القتال كنت أراقب حركاته، إيماءاته، لفتاته، كل شيء تقريبا يا بني، لقد استحوذ الأمير "شهاب" على مشاعري، حتى لم أكن أطيق سماع اسم الأمير "ثناء".

ـ ولكن سيدتي، هل كان هذا هو نفس ما كان يشعر به الأمير "شهاب" تجاهك؟

. بالتأكيد يا ولدي، بعد أن قصت عليه خادمتي "سمراء" ما فعلته، وأنا أقود العربة الملكية وصراخي في الخيل لتسرع في عدوها، إلى وقوفي إلى جانب كبير الأطباء وهو يقوم بخياطة جرح كتفه، إلى سهري إلى جانب فراشه طوال يومين إلى أن استعاد وعيه قال ليتها تشعر بما أشعر به نحوها، يا "سمراء" هذه هي المرة الأولى التي أخطئ فيها هدفي،

شدة خوفي عليها جعلت الرمح يهتز في يدي وأنا أصوبه تجاه الذئب، لقد قلت في نفسي ساعتها، لن يقترب منها إلا إذا قضى عليّ.

. وهل كنت تعلم سيدي أنها الأميرة "علياء"؟

ـ لا يا "سمراء"، عندما كانت تضع كمية من الماء في راحة يديها ثم تدفعها لأعلى بقوة فيتساقط الرذاذ على وجنتيها، لم يكن يبدو عليها أنها أميرة، لقد اعتقدت في البداية أنني أرى حلما جميلا لملاك هبط من السماء، ولكن ما إن صرخت عندما قتل الذئب كبيرة وصيفاتها، أيقنت أن الحلم الجميل تحول إلى كابوس مرعب، فاندفعت بأقصى سرعتي لإنقاذها.

أشارت السيدة العجوز بإصبعها إلى الجانب الآخر من السور وقالت:

ـ في هذا المكان، كان كبير الفرسان يقوم بتدريب الأمير "شهاب" على فنون القتال، مازلت يا ولدي أذكر جيدا ما حدث.....

كنت في تلك الساعة أجلس مع والدي في جناحه الخاص عندما استأذن كبير الفرسان في الدخول ليطلع أبي على ما أحرزه الأمير "شهاب" من تقدم في فنون القتال، ولما أذن له أبي بالدخول قال:

ـ مولاي، لقد نفذت ما أمرتني به، دفعت أحد أبرز فرساني ليبارز الأمير "شهاب" ولكنه تغلب عليه، فدفعت باثنين من الفرسان لمبارزته، فتغلب عليهما أيضا، إلى أن وصل عدد الفرسان إلى خمسة، لقد كونوا حلقة حوله، كلما حاول أحدهم الاقتراب منه ومبارزته بالسيف كان يصد ضربته بدرعه ثم يكيل له الضربات، إما بقبضة يده أو بركلة بقدمه، لقد كان يتقدم نحوهم في شجاعة عجيبة ثم يتراجع في خفة وهو يبارزهم، لقد ذكّرني مولاي بالسناجب وهي تقاتل أشرس أنواع

الثعابين السامة في الغابة، وما إن انتهينا من جولة المبارزة حتى اصطحبته إلى ميدان الرماية بالسهام.

في البداية وضعت له هدفا كبيرًا فأصابه بإتقان، ثم قمت باختيار أهداف أقل حجمًا، حتى استطاع أن يصيب ثمرة بطيخ من على مسافة تقارب المائة ذراع، وما إن انتهينا من هذه الجولة حتى اصطحبته إلى ميدان ركوب الخيل، لقد اعتقدت مولاي أنه سيحتاج إلى التدريب على ركوب الخيل ولكن كانت المفاجأة مدوية.

كان الفرسان يتدربون على ركوب الخيل ويستبقون في المضمار المخصص لذلك، وقع أحد الفرسان من على فرسه خلال محاولته القفز من على أحد الحواجز، أسرع الجواد بالعدو خارج المضمار، اندفع الأمير "شهاب" كالسهم في اتجاه الفرس بعيدًا ثم أمسك بلجامه واستطاع أن يمتطيه وهو يجرى.

عندما انتهت هذه الجولة، اصطحبته على الفور إلى ميدان إصابة الهدف بالرمح، كنت على يقين وقتها أنه سيحتاج إلى تدريب على كيفية إصابة الهدف، لأن أحد الفرسان الذين أثار تفوق الأمير "شهاب" في المبارزة وإصابة الهدف بالسهم والفروسية غيرتهم، اقترب مني وقال:

. سيدي القائد لقد أخطأ الأمير "شهاب" هدفه بالرمح حينما هاجم ذئب سمو الأميرة "علياء" قبل عدة أيام، وكاد الذئب أن يقضي عليه لولا السهم الذى أطلقه حارس مولاي الملك فأصاب الذئب وقتله، أعتقد أنه لن يصيب الهدف هذه المرة.

. حسنا، سنرى.

اخترت شجرتين قريبتين من بعضهما البعض ثم أمرت أحد الجنود بالوقوف إلى جانب واحدة وأمرت الآخر بالوقوف إلى جانب الأخرى، ثم مددت طرف الحبل بينهما وعلقت به إحدى ثمار البطيخ، أمرت جندى منهما بجذب طرف الحبل نحوه بسرعة متساوية، وما إن تصل الثمرة إليه حتى يقوم الآخر بجذب الحبل فتعود الثمرة مرة أخرى.

وقف الفرسان في صف، كل واحد منهم يقوم بتصويب الرمح في اتجاه ثمرة البطيخ وهي تتحرك أمامه، لم يستطع أحد من الفرسان التصويب بنجاح إلا ثلاثة فرسان من بينهم الأمير "شهاب"، ولما أمرت الجنديين بسحب الثمرة بشكل أسرع لم يستطع أحد من الفرسان النجاح في الاختبار، وحينما جاء الدور على الأمير "شهاب" أمسك بالرمح ثم عاد خطوة إلى الوراء ثم رفع مقدمة الرمح لأعلى ثم رماه بقوة في اتجاه ثمرة البطيخ، فشقها نصفين، حينئذ صفق الجنود والفرسان له بحرارة، اتجه إليّ وقال:

ـ سيدي القائد، لم أكن أريد إصابة ثمرة البطيخ فقط، بل كنت أريد اصطياد الظبى الذى كان يعدو خلفها بين الأشجار.

أسرع الجنود بالجري نحو المكان الذى سقط فيه الرمح، فوجدوه قد أصاب بالفعل ظبيا صغيرًا.

ابتسم الملك ابتسامة رضا في وقار وسأل: . أين الأمير "شهاب" الآن؟

ـ إنه في غرفته مولاي يأخذ قسطا من الراحة، أيأذن لي مولاي بالانصراف؟

قال الملك وهو يداعب شعيرات لحيته بأصابعه وقد نظر إلى تمثال على مدفاءة داخل جناحه لفارس بملابس الحرب الكاملة من خوذة ودروع

ويرفع رمحه لأعلى استعدادا لتصويبه على الهدف وهو يمتطى جوادًا أبيض، أتعرفين يا "علياء"، لم أخطئ قط في تقديري لإمكانيات ومزايا أحد التقيته من قبل، حدث هذا مع "شهاب" وهو ملقى على الأرض بين الحياة والموت، والذئب ممسك بكتفه يحاول سحبه بين الأشجار حتى يجهز عليه، أدركت ساعتها أنه إن نجا وتشبث بالحياة فسيكون له شأن كبير بيننا.

حاولت يا ولدي أن أخفي سعادتي بما قاله قائد الفرسان، أو بما قاله أبي عن وصفه للأمير "شهاب" حتى لا يلحظ أن إعجابي بالأمير "شهاب" قد وصل إلى عنان السماء.

قطع أبي لحظات الصمت بقوله:

اكتبي يا سمو الأميرة على رأس الورقة

"أمر ملكي"

قررنا نحن ملك مملكة "البهاء" الإنعام على الأمير "شهاب" بلقب الأمير الفارس وتعيينه مساعدا لقائد الحرس والفرسان، مع إشرافه الكامل على حراسة أسوار المملكة من أى عدوان خارجي والضرب بيد من حديد على من تسول له نفسه تخويف أو ترويع الأمنين.

يتم العمل بهذا المرسوم الملكي ما إن نقوم بالتوقيع عليه بخاتم المُلك.

خلع أبي الخاتم من إصبعه ثم أعطاني إياه للتوقيع على المرسوم الملكي ثم أعطاني ظهره، محاولا إخفاء يديه وهو يضعهما على بطنه وقال وهو يتألم:. لقد هاجمتني الآلام مرة أخرى، استدعي كبير الأطباء في الحال.

❊ ❊ ❊

الحقيقة

قمت بالالتفات حول الكرسى الهزاز الذى كانت تجلس عليه السيدة العجوز حتى أصبحت في مواجهتها وسألتها بشكل مفاجئ:

ـ سيدتي، ألم يلحظ مولاي الملك إعجابك الشديد بالأمير "شهاب" حتى هذه اللحظة؟

ـ حيرتني الإجابة عن هذا السؤال يا ولدي، لقد طرأ على ذهني، وأعدته على نفسي مرات ومرات، ولم أجد له إجابة شافية أو مؤكدة، فأبي بارع في إخفاء ما يشعر به، أحيانا أكاد أجزم بأن الخطوة التى اتخذها بأن يقتصر الحفل على الخطبة فقط، إلى أن يفوز الأمير "ثناء" بمشاعري هى دليل على أنه أدرك أن مشاعرى تجاه الأمير "شهاب" قد تملكتني، المرة الثانية التى شعرت فيها بأنه يدرك إعجابي الشديد بالأمير "شهاب"، عندما عينه مساعدًا لقائد كتيبة الفرسان بعد أن أظهر شجاعة نادرة في إنقاذي وتفوقا في فنون الحرب، أما المرة الثالثة التي شعرت فيها بأنه يدرك إعجابي بالأمير "شهاب"، عندما أمسك بالجرس الصغير واستدعى الحارس "مهاب" وقال له:

. أريد أن تدفع بأحد أخلص الرجال، خلف الأمير "ثناء"، عليه أن يرصد تحركاته كاملة، لا يدعه يغيب عن عينه حتى وإن كلفه الأمر دخوله مخدعه، ثم استدار إليّ ورمقني بنظرة سريعة ليرى تأثير ما طلبه من الحارس "مهاب" على وجهي.

انتقل الأمير "شهاب" للإقامة في منزله الملحق بالقصر الملكي، وأصبحت يا ولدي أراه من شرفتي هذه كل صباح وهو ينظر لأعلى يتابع أسراب الحمام التى تتخذ من أبرج الأسوار بيوتا لها، ثم أراقبه وهو ممتطٍ جواده الأبيض يتابع أعمال الحراسة التى كلفه بها أبي.

في صباح أحد الأيام استيقظت مبكرًا كعادتي ثم توجهت مباشرة إلى جناح أبي لأجلس معه قليلا، قبل أن يبدأ في متابعة شئون المملكة.

استأذن الحارس "مهاب" في الدخول ولما أذن له قال:

ـ انتهينا من المهمة التى أمرتنا بها مولاي، أرسلت أحد أفضل الرجال لمراقبة الأمير "ثناء" عن بعد ورصد تحركاته كاملة، ما إن عاد مولاي حتى أحضرته ليمثُل بين يديك.

. دعه يدخل.....

. سمعا وطاعة مولاي.

خرج "مهاب" بسرعة، فوجد الفارس حيث أمره بالوقوف، اقترب منه وقال:

ـ ستمثل الآن بين يدي مولاي الملك، عليك عدم الاقتراب منه مسافة ذراعين، وعليك الانحناء عند الدخول، لا ترفع يديك على الإطلاق أثناء الحديث، لا تتحدث بصوت مرتفع، ولا بصوت منخفض فلا يسمع منك شيئا، عليك أيضا الاختصار في الحديث، لا تدخل في تفاصيل تبدو غير مهمة، ما إن تفرغ من الحديث عليك بالانحناء ثانية ثم تنسحب خطوة فخطوة للوراء، إياك أن تعطى ظهرك لمولاي الملك وإلا فصلت رأسك عن جسدك في الحال.

نفذ الفارس ما طلبه منه "مهاب" من آداب بعد دخوله لجناح الملك ثم قال:

. لا أعرف من أين أبدأ مولاي الملك!!!

. لا تخش شيئا، هات ما عندك.

ـ الأمير "ثناء" ينام طوال النهار ولا يستيقظ إلا مع غروب الشمس، يمتطى جواده ثم ينطلق إلى إحدى بيوت الغواني ويتبعه حارساه، يبدأ في شرب كؤوس الخمر الواحد تلو الآخر حتى يثمل، ثم يحمله حارساه وهو يسبهما ويركلهما بقدمه وهو يضحك، إلى أن يقوما بتوصيله إلى بيت عشيقته الأميرة "هيفاء" زوجة ابن عمه.

امتعض وجه الملك وقال:

. انصرف أنت الآن.

. سمعا وطاعة مولاي.

وجدتها فرصة مناسبة لكي أذكر أبي برغبتي في عدم الارتباط بالأمير "ثناء" فقلت له:

ـ ألم أقل لك يا أبتي؟ أن العود الأعوج لن يستقيم قط، لقد بلغ الاعوجاج حدًا لا ينفع معه النصح.

. دعي هذا الأمر جانبا الآن يا بنيتي.....

❊ ❊ ❊

طبول الحرب

بادرت السيدة العجوز بعدة أسئلة وتعجلت الإجابة عليها، فقد كنت في حيرة من أمري، تارة أتعاطف معها، ويدفعني فضولي لمعرفة نهاية قصتها مع الأمير "شهاب" وتارة أخرى أريدها أن تنتهي من سرد قصتها لأواصل بحثي عن حبيبتي التى اختفت، فقد كنت على يقين بأن معرفة نهاية قصتها سيساعدني في العثور على حبيبتي فسألتها:

ـ وماذا فعل الملك حيال ما سمعه من معلومات مؤكدة عن السلوك المشين للأمير "ثناء"؟ هل أصر على إتمام خطبتك له رغم ما سمعه عنه؟ أم أنه قام بإلغاء الحفل رغم أنه كان يعارض بشدة إلغاءه؟

. لا تتعجل الأمور يا ولدي.

. كيف سيدتي؟

ـ الأحداث التي تلت هذا اليوم هي التي ساهمت بشكل كبير في إلغاء الحفل وساعدتني كثيرًا على التقرب من الأمير "شهاب" وساعدته أيضًا على أن يفصح بمكنون ما يشعر به نحوي في البداية سارت الأمور هادئة، كنت أستيقظ كل يوم مبكرا جدا، أسرع إلى نافذة غرفتي كي أرى الأمير "شهاب" وهو جالس في شرفة غرفته، ينظر لأعلى يتابع أسراب الحمام وهي تحلق في سماء المملكة في شكل دوائر صغيرة ثم تتسع، وبعد ذلك تهبط إلى أعشاشها، ما هى إلا دقائق قليلة حتى تعاود التحليق ثانية.

ما إن يدخل الأمير "شهاب" من شرفته إلى الغرفة، حتى أُدرك على الفور أنه يتهيأ للنزول لمتابعة عمله في الإشراف على حراسة الأبواب والأسوار في المملكة، لذلك كنت أقوم بارتداء ملابسي بسرعة ثم ألتقيه في حديقة القصر.

في البداية كان الأمير "شهاب" يخشى مصارحتي بما يشعر به نحوي وبخاصة عندما علم بأمر خطبتي من الأمير "ثناء" ولكن ما إن صارحته بما أشعر به حتى قال:

. ما الفائدة سمو الأميرة الآن؟ فأنا أشعر بأكثر مما تشعرين به، محكوم على هذه المشاعر بالموت، لقد شعرت بما لم أشعر به من قبل منذ أن رأيتك وأنت تلهين بالماء، وتركضين ومن خلفك جاريتك. ما لا تعرفينه سمو الأميرة، أنني كنت أجلس على مرتفع قريب من البحيرة، أتخفى بين الأشجار، أنتظر وقوع فريسة في إحدى الفخاخ التي نصبتها، حتى رأيت موكب مولاي الملك وهو يقترب من المكان، أسرعت بالابتعاد، حاولت الاختباء بين الأغصان الكثيفة.

كانت المنطقة تعج بالحراس لتأمين رحلة الصيد، فقبل هذا الحادث بأيام قليلة حضر إلى السوق رجال المخفر ووزعوا منشورًا، يقضي بعدم الاقتراب من هذا المكان حتى تنتهي رحلة الصيد ولكني لم أستطع الانتظار، فالشراك التي نصبتها قبل أيام في المكان تحتاج لمتابعة مستمرة، لقد جاء في المنشور أن من يتم إلقاء القبض عليه في هذه المنطقة سوف يحاكم بتهمة محاولة اغتيال الملك.

ما إن لمحت الذئب يتحرك في اتجاه كبيرة وصيفاتك ويقضي عليها حتى أدركت أنك التالية، أسرعت بالنزول من التل غير عابئ بما يمكن أن

يفعله الحراس بي، أو بالتهمة التى من الممكن أن يوجهها إليّ قائد الشرطة، كل ما كنت أفكر فيه أن أدفع عنك الأذى ولو كلفني ذلك حياتي. كان وجه السيدة العجوز يتهلل فرحًا وهي تقص عليّ قصتها مع حبيبها "شهاب" فقلت لها:

أراك سيدتي مبتسمة، رغم أنك تسترجعين ذكريات مؤلمة عن الحادث !!!

ـ نعم يا ولدي، ناهيك عن حالة الفزع التى انتابتني أنا وجاريتي، ولكن انظر إلى تلك المشاعر النبيلة التى دفعت فتى في مقتبل العمر لكى يتحدى أمرًا ملكيا ويخاطر بحياته ومستقبله لكى ينقذ فتاة في عمر الزهور من براثن ذئب مفترس، فحتى هذه اللحظة لم يكن يعلم أنني الأميرة "علياء".

ـ إياك يا ولدي أن تفرط فيمن يعرض حياته للخطر من أجل إنقاذك، منذ ذلك اليوم وأنا ألتقى الأمير "شهاب"، إما أن نتريض في حديقة القصر أو نمتطي الخيل.

في مساء أحد الأيام هاجمت أبي الآلام، وكانت تبدو أكثر إيلاما من سابقتها، أسرعت بإعطائه جرعة الدواء التي وصفها كبير الأطباء. جلست إلى جواره إلى أن استغرق في نومه ثم أرسلت خادمتي "سمراء" إلى الأمير "شهاب" أتعجله في الحضور.

ما إن حضر حتى حدثته عن الآلام المبرحة التى تهاجم أبي، وطلبت منه أن يلازمه خلال اجتماعه مع مستشاريه في اليوم التالي.

لم أنسَ ما حدث في صباح ذلك اليوم يا ولدي، ذهبت إلى جناح أبي كعادتي للاطمئنان عليه، وفي اللحظة التى انحنيت فيها لأقبل جبهته وهو نائم، طرق حارس أبي "مهاب" على الباب، ولما أذنت له دخل وقال:

. رئيس الوزراء يطلب لقاء مولاي الملك سمو الأميرة.

. ألا يستطيع الانتظار يا "مهاب" حتى يستيقظ أبي.

. عفوا سمو الأميرة، فهو يقول إن الأمر عاجل.

فتح أبي عينيه بصعوبة وقد ظهرت عليه آثار الإجهاد الذى عانى منه ليلة الأمس وقال: . دعه يدخل يا "مهاب" يبدو أن الأمر خطير.

. سمعا وطاعة مولاي.

دخل رئيس الوزراء وعلامات الجدية والقلق تبدو على وجهه وقال وهو متجهم:

ـ عفوا جلالة الملك، عيوننا في مملكة "الجذام" تؤكد أنهم سيشنون علينا حربا شعواء، يريدون السيطرة على موارد الغذاء، وحرمان شعبنا من الرخاء.

عيوننا هناك تؤكد مولاي الملك أنهم بدأوا في تجهيز أولى الحملات:

في كل حملة قاذف لكرات لهب تحمله البغال

عربات المؤن تجرها الحمير والجمال

وسلالم عملاقة وكميات هائلة من الحبال

وعلى رؤوس الجند خوذات وفي الأقدام من الجلود نعال

وعلى صدورهم دروع لصد السهام والنبال

ويقود كل فيلق من الجند فارس وخيال

والقادة يركبون الأفيال

ويصحبون معهم أسودًا ونمورًا لترويع الشيوخ والأطفال.

❊ ❊ ❊

مجلس الحرب

ألغى أبي اجتماعه مع مستشاريه وأعطى أوامره للقادة بعقد مجلس الحرب في الحال، على أن يظل المجلس برئاسته منعقدا طوال الفترة القادمة، لمناقشة ودراسة المعلومات التى تأتي من عيوننا في مملكة "الجذام" وتؤكد أن الحرب على الأبواب.

ارتدى أبي ملابس الحرب كاملة وأسرع بالنزول من جناحه الخاص إلى القاعة المخصصة لعقد الاجتماعات مع القادة المسئولون عن حماية وأمن المملكة.

ما إن دخل القاعة حتى هب الجالسون بالوقوف إجلالا واحتراما.

كان المجلس يتكون من رئيس الوزراء، وقائد الشرطة، وقائد الأمن الخارجي، والمسئول عن الغذاء، وقائد سلاح الفرسان، وقائد سلاح الرماية، والأمير "شهاب" المسئول عن حراسة الأسوار والأبواب.

بدأ أبي الاجتماع بقوله:

عم السلام في المملكة فترات طوال

علينا الاستعداد للقتال

وعلينا من الآن تدريب الجند على فنون النزال

وتزويد العامة بالنبال
وتهيئة الشباب على الصبر والاحتمال
تحدث قائد الأمن الخارجي وقال:
. وإن فرضوا على المملكة حصارا من اليمين والشمال.
نظر أبي إلى المسئول عن الغذاء وسأله:
. ما هو حجم المخزون من الغلال؟
. ليس بالكثير جلالة الملك ولن يتجاوز ثلاثة أشهر.
ـ إذن علينا شراء الشعير والدقيق من الممالك المجاورة بالمال وإن لم تتوفر الإمكانات لذلك علينا أن نعرض عليهم مبادلة الشعير والدقيق بما يحتاجونه من سلع أخرى بأسرع ما يمكننا.
تحدث وزير الشرطة قائلا:
. هناك مولاي الملك خطط كثيرة أعددناها سابقا لمجابهة مواقف كهذه، ولكن علينا ابتكار وسائل جديدة لمواجهة المعتدين سيدي.
طلب الأمير "شهاب" الكلمة فأذن له الملك وسط دهشة الحاضرين إلا قائد سلاح الفرسان والذى كان يعرف عن قرب إمكانيات الأمير.
ـ علينا مولاي أن نحفر خندقا خارج أبواب القلعة على أن يكون بينه وبين الأسوار عدة أمتار ثم نغطيه بالأعشاب، وعندما يبدأ هجوم الأعداء نطلق السهام المشتعلة باللهب في اتجاه الأعشاب الجافة، ما إن تصيبها حتى تشتعل النيران في سائر الأعشاب وبالتالى تمتد إلى كامل الخندق، ومن يستطع منهم عبور الخندق في اتجاه الأسوار نسكب عليه الزيت المغلى من أعلى الأبواب، ومن يحاول تسلق الأسوار نقضى عليه بالحراب، ومن يحاول منهم الانسحاب يتعقبهم جندنا من بين أغصان

اللبلاب ويقتلونهم بنبال الغاب، وبذلك مولاي نكون قد طوقناهم من الوسط والأجناب.

أثنى الملك عليه وعلى فكرته، ولكنه قال سنحتاج إلى اشتراك أعداد هائلة من العامة في أعمال الحفر حول المملكة.

ـ عفوا سيدي، لن نقوم بعمل الخندق على كامل المساحة، فأنا أعرف أن المملكة مترامية الأطراف ومن الصعب إن لم يكن من المستحيل تنفيذ هذا الأمر خلال سنوات، فما بالنا ببضعة أشهر، خلال مروري وإشرافي على الأبراج والأسوار خلال الفترة الماضية، استطعت أن أرصد نقاط الضعف التي من الممكن أن يكون الهجوم علينا منها.

أطلب مولاي الملك بضعة أيام لإعداد خطة شاملة عن الحرب وكيفية الدفاع عن المملكة.

التفت الملك إلى قائد الشرطة وقال:

ـ سأرسل لك اليوم مرسومًا ملكيا يتعلق بالأمن الداخلى واجب التنفيذ فورا.

في نهاية الاجتماع أعلن الملك استمرار مجلس الحرب في حالة انعقاد مستمر إلى أن تنتهى التجهيزات الخاصة بالدفاع عن المملكة.

التفتت السيدة العجوز مرة أخرى إليّ وقالت:

ـ هل ستظل واقفا هكذا إلى جانبي يا بني؟ استرح قليلا فما زال مشوارك طويلا.....

ـ عفوا سيدتي، لقد استحوذت قصتك على اهتمامي، رغم أني في هذا المكان منذ فترة طويلة إلا أنني لم أشعر بعد بالإرهاق وقلت في نفسي،

ربما هذه هى اللحظة المناسبة لكى أعيد عليها سؤالى، ربما ترشدنى إلى المكان الذى أجد فيه حبيبتى التى اختفت في غفلة من الزمان.
كررت عليها سؤالي وأنا أحاول أن أخفي عدم اكتراثي بسماع البقية الباقية من قصتها فقلت لها:
ـ سيدتي، ألم تلحظي وأنت تجلسين في هذا المكان منذ فترة طويلة تراقبين الأسوار وأبواب المملكة وجود حركة غريبة أو مريبة تدل على مجيء حبيبتي أو عبورها هذا المكان؟
ـ أعرف يا ولدي أنك تستمع بأذنيك فقط ولكن قلبك مشغول بحبيبتك، قصتي هذه يا ولدي ستكون دليلك للوصول إلى مكانها.
. عفوا سيدتي الوقت يمر وأخشى ألا أجدها!!!
لم تعر السيدة كلامي أي اهتمام بل واصلت الحديث معلنة أنها ستكمل حديثها معى وعليّ أن انتظر وأستمع لما ستقوله.
التفتت مرة أخرى إلى الشرفة ونظرت إلى أبواب القلعة وقالت تحدث نفسها:
لا يستطيع الانتظار دقائق معدودة وأنا أنتظر في هذا المكان منذ سنوات !!!
أثارت هذه الكلمات دهشتي وكيف لا تشعر هذه السيدة بما تشكل هذه الدقائق حدا فاصلا في الحفاظ على حياة حبيبتي، ولما أحسست أنها ربما تشعر بالغضب مني ومن لهفتي على الانصراف، أردت ان أخفف من وطأة إحساسها بالغضب منى فقلت لها:
. ولكن سيدتي، ألم يكن للأمير "ثناء" أي دور في مجلس الحرب.

ـ بالطبع لا يا ولدي، لقد توقف كل شيء، حتى إشعار آخر، أعلنها أبي صريحة، أكد على تأجيل حفل الخطبة إلى أجل غير مسمى نظرا للظروف القهرية التي تمر بها المملكة وتكاد تعصف بها وبأهلها، وبخاصة أنه قد وردت معلومة تشير إلى احتمال أن يكون الهجوم في نفس يوم الحفل.

. أرجوك سيدتي، لا تغضبي مني.

. لن أغضب يا ولدي، أعرف الدافع من سؤالك ولهفتك على الرحيل.

❊ ❊ ❊

الخائن

في صباح أحد الأيام جلس الأمير "شهاب" في غرفته يدرس خطط الدفاع عن المملكة، كان يدون ملاحظاته عن نقاط الضعف في الأسوار وكيفية تحصينها، أدرك أن عليه إيجاد أساليب جديدة للدفاع عن المملكة، لقد تعهد أمام الملك أن ينجز هذا العمل خلال بضعة أيام، الوقت ضيق، ربما تندلع الحرب بعد بضعة أشهر، عملية حفر الخندق حول أسوار المملكة قد تستغرق فترة أطول بكثير، سيأتي جنود مملكة "الجذام" بأبراج تفوق ارتفاع الأسوار وسيحاولون القفز منها إلى الداخل، حينئذ سوف نطلق عليهم السهام ولكن إن استخدموا المجانيق أو قذفوا المملكة من مسافة بعيدة بكرات اللهب، ماذا سنفعل؟ سنحترق كلنا بداخلها، علينا أن نبدأ الدفاع عن المملكة من مسافة بعيدة عن الأسوار حتى نتجنب قذفنا بكرات اللهب، علينا أيضًا أن ننصب شراكًا كثيرة حول المكان، لقد حبانا الرب بالكثير من العطايا والهبات ومنها ذلك النهر الجارى داخل المملكة، من الممكن تحويل مجراه إلى الخارج.

بينما الأمير "شهاب" يفكر في كيفية الدفاع عن المملكة، إذا به يسمع صوتًا على باب شرفة غرفته، قام من مكانه واتجه مباشرة إلى الباب وفتحه، فوجد حمامة بيضاء ملقاة على الأرض، انحنى يلتقطها وهو يقول:

ربما أعياها التعب من الطيران أو ربما تكون مصابة.

رفعها من على الأرض برفق وقال لها:

. حمدا للقدير على سلامتك صغيرتي، ما بك؟ أكنت تهربين من شيء ما؟ هل هاجمك سرب الحمام الذى يحلق في الأعالي صغيرتي؟

أخذ "شهاب" يتفحص الحمامة بأصابعه وما إن وضع إصبعه تحت جناحها حتى شعر بشيء بارز تحت جلدها، أزاح الريش برفق محاولا رؤية ما تحته وهو يقول ما هذا؟ هل هذا نتوء أم ورم، تحسسه برفق ثم وضع إصبعه عليه وقال:

إنه يشبه الأنبوب الصغير!!!

قدم شهاب الطعام والشراب للحمامة وما إن فرغت، حملها واتجه مباشرة إلى غرفة كبير الأطباء....

طرق على الباب الغرفة بهدوء، فسمعه يقول:

. تفضلي سمو الأميرة!

فتح الباب وقال:

. عفوا سيدي، جئت أستشيرك في أمر مهم.

ـ تفضل سمو الأمير، لا أعتقد أنك جئت لأمر يخصك، أحمد القدير، لقد أصبحت الآن في أحسن حال، ولكن ما الذى بيدك؟ هل اصطدت هذه الحمامة؟

. لا سيدي ولكن هناك شيئًا استرعى انتباهى تحت جناحها !

مد كبير الأطباء يده وتناول الحمامة وقال:

. ما الذى استرعى انتباهك أيها البطل الهمام؟

ـ هذا النتوء سيدي ما إن تحسسته حتى شعرت بأنه يشبه الأنبوب، موجود تحت الريش ما بين الجلد واللحم.

تحسس كبير الأطباء الحمامة وقال:

. نعم يبدو كذلك ولكن لمَ كل هذه الضجة؟ هل تشعر بالقلق عليها إلى هذا الحد؟

. عفوا سيدي، أريد أن أستخرجه، وفي نفس الوقت أريد أن أحافظ على حياتها، لذلك أتيت لك.

. ربما تكون قد ابتلعت شيئا ولم تستطع هضمه!!!

. إنه موجود تحت جناحها وليس في معدتها سيدي.

. حسنا، سأنزع الريش برفق، ثم نرى ما تحته.

أمسك "شهاب" بالحمامة وبدأ كبير الأطباء في نزع الريش أسفل جناحها، وما إن انتهى من نزعه حتى قال:

ـ ما هذا؟ هذا شيء عجيب، لقد شق أحدهم الجلد أسفل جناحها ثم وضع أنبوبًا صغيرًا ثم أعاد خياطة الجرح ثانية، ترى من فعل ذلك، وماذا يحوي هذا الأنبوب؟

استخرج كبير الأطباء الأنبوب الصغير ثم قام بخياطة الجرح ووضع الحمامة في قفص صغير وقال للأمير "شهاب"

. سأعتني بها قدر استطاعتي.

ـ أرجوك سيدي الطبيب، حياة هذه الحمامة تعنى لي الكثير وستزيد أهميتها ما إن نرى ما بداخل الأنبوب.

فتح "شهاب" الأنبوب، فوجد ورقة صغيرة مكتوب فيها "نريد معلومات كاملة عن خطط الدفاع عن المملكة"

استأذن "شهاب" كبير الأطباء في الانصراف وقال وهو يخرج من غرفته:

. سيدي، لا أريد أن يعلم أحد ما بأمر هذه الرسالة.....

. طبعا سمو الأمير، ولكن ماذا أنت فاعل بها؟

. سوف أبلغ مولاي الملك بمحتواها على الفور.

أسرع "شهاب" إلى الأميرة "علياء" وما إن أبلغ خادمتها "سمراء" بأنه يريد لقاء الأميرة في الحال حتى انزعجت وقالت:

. أفي هذا الوقت المبكر سيدي؟

. نعم يا "سمراء" فالحدث جلل.

. سمعا وطاعة سيدي.

دخلت "سمراء" إلى غرفة نوم الأميرة "علياء" وأيقظتها في هدوء وقالت:

. الأمير "شهاب" بالباب مولاتى.

. حقا يا"سمراء"، هل حدث مكروه ما؟ ألم تشرق الشمس بعد؟

ـ لا سيدتي، وهي تضع شالا على كتف الأميرة، لقد أشرقت الأرض بنور ربها منذ قليل.

أسرعت الأميرة إلى باب غرفتها ثم فتحته، فوجدت الأمير "شهاب " وقد بدت على وجهه علامات القلق.

. خيرا يا "شهاب"

ـ خيرا سمو الأميرة، وهو يقدم لها الأنبوب، لقد وجدت هذا الأنبوب تحت جناح حمامة سقطت في شرفة غرفتي منذ قليل وبها هذه الرسالة، أريد أن ألتقي جلالة الملك الآن!!!

أخذت الأميرة الرسالة ثم قرأتها وقالت:

. هيا بنا.

دخلت الأميرة إلى جناح الملك فوجدته نائما في فراشه، اقتربت منه ثم قبلته كعادتها وقالت في رفق عندما أحست بأنه شعر بوجودها:

. عفوا يا أبتي، لا أريد أن أثقل عليك، أعلم ما تعاني منه.

قال وهو يفتح عينيه :

. لا يا بنيتي، ماذا حدث؟

الأمير "شهاب" يريد أن يتحدث إليك!!!

. أفي هذا الوقت المبكر يا "علياء"؟ هل الأمر مهم إلى هذه الدرجة؟

. نعم يا أبتي!

بدأت علامات الاهتمام على وجه الملك وقال:

. إذن أدخليه في الحال.

قامت الأميرة "علياء" من على فراش أبيها وأسرعت متجهة إلى باب الغرفة ثم فتحته وقالت للأمير"شهاب": أبي ينتظرك.

دخل "شهاب" ثم انحنى قليلا، وقال: أيأذن مولاي لى بالكلام ؟

. نعم . هات ما عندك.

قص "شهاب" على الملك ما حدث بالتفصيل ثم ناوله الرسالة، أدرك الملك أن الخيانة قد وصلت إلى شخصيات بارزة في المملكة، وقال:

أعرف أن عيون مملكة "الجذام" قد نشطت في الآونة الأخيرة، لقد استطاع رجال الأمن القبض على عدد منهم.

قام الملك من على فراشه وأخذ يجوب الغرفة ذهابا وعودة وهو يفكر وقد استشاط غضبا ثم قال بصوت مرتفع:

من يكون فيهم؟ هل هو كبير الوزراء؟

مستحيل فهو من أخلص رجالي... هل هو قائد سلاح الفرسان؟ ..... أم ..... أم ..... أم يكون قائد الشرطة، مستحيل لقد استطاع القبض خلال الأيام الماضية على عدد من المشتبه فيهم كعيون وجواسيس لمملكة "الجذام" وزج بهم في السجن.

قال "شهاب" عندما رأى الحيرة على وجه الملك:

. أيأذن لى مولاي بالكلام.... لقد طلبت من كبير الأطباء بذل أقصى جهد للحفاظ على حياة هذه الحمامة، وبعد أيام قليلة سوف نطلقها لتحلق في الفضاء ثم نراقب المكان الذى سوف تهبط فيه، لتوصيل تلك الرسالة إلى الخائن.

رد الملك بسرعة، ولكن إن لم يستطع كبير الأطباء الحفاظ على حياتها؟

ـ عليك أولا أن تقوم بتكوين مجموعات صغيرة من أخلص الرجال وتكون مهمتهم مراقبة كل قادة مجلس الحرب، على أن تفيدني أولا بأول بما تحصل عليه من معلومات عن هذا الخائن

. سمعا وطاعة مولاي.

استأذن الأمير "شهاب" في الانصراف قاصدا غرفته لمتابعة عمله في دراسة الخرائط التى أعدها للدفاع عن المملكة.

سألت الأميرة أبيها: وما العمل إذن يا أبتي؟ الأمور تزداد صعوبة.

. نعم بنيتي، منذ أن أصدرت قراري بفتح أبواب المملكة للتجار الوافدين من الممالك الأخرى، حتى اندس بينهم الخونة والعملاء، ولم يصل الأمر إلى هذا الحد فقط بل امتد إلى أرفع المناصب الموجودة في المملكة!!! يبدو أن الأيام القادمة ستشهد الكثير والكثير من المفاجآت، لا أريد أن

أصدر الحكم سريعًا على أى أحد ولكن سوف أضرب بيد من حديد على رأس كل من تسول له نفسه خيانتي .

بينما كان أبي يفكر بصوت مرتفع وهو يغدو جيئة وذهابا في جناحه، إذا به يتوقف فجأة عن الحركة ثم يصدر صوت تأوه، انحنى وهو يضع يده على بطنه ثم سقط مغشيا عليه.

قمت بسرعة من على مقعدى وأنا أصرخ طالبة الحارس "مهاب" الذى كان يقف خلف الباب

أسرع بالدخول ثم حمل أبي ووضعه في الفراش.

. أحضر كبير الأطباء في الحال يا "مهاب"، حالة الملك غير مطمئنة.

عاد "مهاب" وبصحبته كبير الأطباء الذى قال بعد أن أعطى أبي جرعة الدواء:

. سينام بعد قليل سمو الأميرة، سأنتظرك في الخارج.

فتح الملك عينيه وسأل كبير الأطباء:

. ألم تصل بعد إلى علاج شافٍ لهذه الآلام؟

. أوشكت على التوصل لعلاج مولاي.

خرج كبير الأطباء من غرفة نوم الملك وتبعته الأميرة "علياء" وهي تتساءل عن أسباب هذه الآلام؟

. كلما تعرض مولاي الملك لضغوط، كلما زادت حدتها سمو الأميرة، وهي ليست بشارة خير فهذه الآلام ستلازمه فترة طويلة، وربما ستعيقه عن مباشرة ومتابعة أمور وشئون المملكة بالشكل الجيد، كل ما استطعت التوصل إليه الآن هو هذه المادة التى تساعد على تخفيف الآلم فقط سمو الأميرة.

استأذن كبير الأطباء في الانصراف قاصدا غرفته.
أسرعت الأميرة "علياء" إلى حديقة القصر لملاقاة الأمير "شهاب "
اقتربت منه في هدوء وقالت:
ـ الأمور تزداد تعقيدا، حالة والدي الصحية تثير القلق وستتعرض المملكة لهجوم في القريب ربما يقضى علينا جميعا إن لم نستعد لصده وبيننا خونة لم نعرفهم بعد.
. علينا سمو الأميرة اكتشاف الخائن أولا، سأتجه الآن إلى غرفتي لإعداد حصر للرجال الذين سأختار من بينهم من يقومون بمراقبة أعضاء مجلس الحرب، ثم سأتوجه بعدها إلى كبير الأطباء لسؤاله عن الوقت اللازم الذى ستحتاجه الحمامة لتسترد صحتها وتعاود التحليق ثانية.
وأنا سأتوجه إلى غرفة أبي وسأظل إلى جانبه حتى يستيقظ.

❊ ❊ ❊

الحائر

رغم ما كان يثقل صدرى من قلق وهم على حبيبتي التى إختفت دون حتى أن تترك وراءها أثرا سوى ذلك العقد الذى وجدته على غصن شجرة قريبة في المكان إلا أنني فتنت شغفا بمعرفة قصة تلك السيدة مع حبيبها الذى أنقذها من الموت بشجاعة منقطعة النظير.

أردت أن أرى تعبيرات وجهها وأنا أسألها ذلك السؤال الذى قد يراه البعض في غير مكانه.

فطوال الوقت الذى كانت تتحدث فيه السيدة العجوز عن قصتها مع ذلك الشاب وأنا أشعر أنني قد تحولت إلى عدة أشخاص في شخص واحد.

أحدهم يريدها أن تنتهى من سرد قصتها لكى يعرف مصير حبيبته التي إختفت ، والآخر يشعر بشغف كبير لكى يتعرف على نهاية قصتها ، والثالث يريد أن ينصرف من هذه الغرفة ويرى أنه لاطائل من الإستماع إلى قصة تلك العجوز ، والرابع يجد متعة كبيرة في الإستماع لقصة هذه السيدة.

كان كل واحد من هؤلاء يستطيع في لحظة ما إن يفرض رأيه وشخصيته على الأخرين فيظلوا قابعين في سكون داخل نفسي ، لايتكلمون ولايحاولون حتى إثارة غضبه حتى ينتهى من إشباع رغبته ، ثم يبدأ الآخر في الطفو على سطح خواطري ، وما إن ينتهى حتى ينزوى في ركن

داخل نفسي ، ثم يبدأ الثالث وهكذا دواليك ، وأنا أشعر بأني حائر فيما بينهم ، ممزق وقد سألت نفسي مرات ومرات من أنا فيهم ؟ وبعد أن حيرني السؤال ، أو حيرتني الإجابة عن هذا السؤال ، أقنعت نفسي بأن كل هؤلاء هم أنا ، وعلى كل هؤلاء أن يتعايشوا معا بداخلي أو قل معى أنا ، لن أكون أنا صاحب الكلمة العليا في نفسي ، بل على كل واحد من هؤلاء أن يقبل برأى الآخر وأن يتقبل التعايش معه ، لأنه إن حدثت الخلافات بينهم فسنكون كلنا خاسرون وانا أولهم.

أفقت على صوت السيدة العجوز وهي تشير بإصبعها إلى خارج الشرفة وقالت:

. هل ترى ذلك المكان ؟

. نعم سيدتي.

. كنا أنا والأمير "شهاب" نربط جيادنا ثم نبدأ في الركض ، أحيانا كثيرة كنت أجرى ثم يجرى هو ورائى وأحيانا أخرى كان هو من يبدأ بالركض وأنا أعدو من ورائه أحاول الإمسك به.

لن أنسى ذلك الصباح يا ولدي ما حييت!!!

إستيقظت من نومى وتوجهت بسرعة إلى شرفة غرفتى لكى أنظر في اتجاه شرفة غرفته كما أفعل كل صباح ، لم أجده كما كنت أجده سابقا يتطلع إلى أسراب الحمام وهي تحلق في الفضاء.

أسرعت بالنزول من القصر متوجهة إلى ذلك الركن الذى تعودت أن أراه فيه ، لم أجده ولم أجد جواده في المكان ، أسرعت بجوادى في اتجاه البحيرة فلم أجده أيضا ، كانت هذه هى المرة الأولى التى بحثت عنه فيها ، فلم أجده في المكان الذى تعودت أن أراه فيه كل صباح ،

بعد فترة من الوقت سمعت صوت حوافر جياد وهي تضرب الأرض بقدميها ، إلتفت فوجدت جواده يقترب منى ، ترجلت عن جوادى وأمسكت بلجام جواده ، في هذه اللحظة وجدت نفسى أفكر فيما يمكن أن يحدث له ، وأنا أتخيل أنه قد وقع من على فرسه ، أو حدث له أى مكروه آخر ، ناديت بأعلى صوتى:

"شهاب"....."شهاب"....."شهاب".....

لم يأتينى أى جواب له ، إرتفع صوتى بالنداء ثانية وثالثة ولا من مجيب .

رأيت على بعد أمتار قليلة فيما يشبه حذائه ، اقتربت منه ، نعم هذا حذاءه ، وهذا سرواله.

أيقنت يا ولدى أنه قد حدث له بالفعل مكروه ، لم أستطع الوقوف طويلا بعد أن راودتنى الأفكار المسمومة عن إحتمال أن يكون قد حدث له مكروه ، وضعت وجهى بين يدى وظللت أبكى بشدة .

سمعت يا ولدى صوت صفير يأتي من فوق ، رفعت رأسي بهدوء لأعلى ، وجدته وقد جلس على غصن شجرة وهوينظر إليّ ويطلق صفيرا متواصلا ويسأل :

. هل تبحثين عنى مولاتى الجميلة ؟

وقعت عيني عليه ، فوجدته مبتسما ، منتشيا من السعادة ، أدركت ما كان يدبر له "شهاب" أراد أن يختبر صدق مشاعرى تجاهه.

في تلك اللحظة أردت أن أرد له الصاع صاعين ، فقلت له وأنا أمسك حذاءه وسرواله بيد وبالأخرى أمسح دموعى التى هوت على وجنتىَ:

من الذى أشار عليك بما فعلت ؟

ـ شيطاني سيدتي الجميلة وهو يحاول الهبوط من على غصن الشجرة الذى كان يجلس عليه

إذن سأنتقم أنا من ذاك الشيطان ، سآخذ حذائك وسروالك وأغادر هذا المكان بسرعة ، قلت هذا وأنا امتطى جوادى ، إستدركت قائلة :

ـ سوف أؤدب هذا الشيطان ، عليك بمغادرة هذا المكان بعد أن تهبط من على هذه الشجرة دون حذاء أو سروال.

. كيف سيدتى أدخل القصر بهذا الشكل ، الجنود ينتظرونني!!!

. هل تقبلين أن يرى جنود القصر حبيبك وهو يترجل من على فرسه دون حذاء ولا يرتدى سروال ؟

ـ قل لشيطانك الذى أوحى لك بفكرة أن تخدعني وتجعلنى أبكى من خوفي عليك أن يأتي لك بسروال وحذاء!

. أستحلفك بالقدير مولاتي لن أفعل ذلك ثانية.

إذن لن يهدأ لي بال حتى أركلك في مؤخرتك ، لقد خدعتني وأنا سأنتقم منك ومن شيطانك هذا.

قفز من على الشجرة ، وما إن لمست قدماه الأرض حتى تأوه بصوت مرتفع وقال:

. قدمى .....يا "علياء"..... لقد كُسرت قدمى.

بعد أن خطوت بضع خطوات ، توقفت ثم إستدرت وأنا ممتطية جوادي ، فرأيته ملقى على الأرض وهو ممسك بكاحل قدمه ويتأوه بصوت عالى.

أسرعت بالنزول من على الجواد وجريت نحوه بسرعة ، إنحنيت عليه وقلت له :

. ليتك لم تقفز من على هذه الشجرة.

إنهمرت الدموع من عيناى وأنا أقول له سوف أقف إلى جوارك وما إن تقف سوف أحضر جوادك ، علينا الذهاب بسرعة إلى كبير الأطباء ليعالج كاحلك.

تحسست كاحله ، فلم أشعر بوجود شيء غريب ، ولكن كلما لمسته كان يصرخ من الألم ثم وضع يده على ظهري و أمسك خصري بكلتا يديه وجذبنى فوقعت على ظهري على الأرض

نظر إليّ بعينيه الزرقاوان وهو يقول:

لن أتركِ تأخذين سروالى وحذائى ، بل سأظل جاثما على صدرك حتى تخضعي ، وأنا أحاول أن أركله بكلتا قدماى ، علني أستطيع الإفلات منه ، وبعد لحظات بلغ بي العناء مبلغا فأحسست بقواى تخور وقلت له:

. أعلن إستسلامي لك.

. قال وهو يرخي قبضته قليلا :

حسنا..... يكفى هذا اليوم.

قمت من مكاني وبدأ هو في إرتداء سرواله وحذائه وترتيب هندامه حتى يبدو وكأن شيئا لم يكن.

مشيت بحذر بينما هو يعطيني ظهره ، أمسكت بلجام فرسه وشددته نحو جوادي وإمتطيته

بسرعة ثم وقفت بعيدا عنه.

ما إن إرتدى سرواله وحذائه حتى إلتفت ونظر ، فوجدني أبتعد بكلا الجوادين.

حاول الإقتراب ، فابتعدت أنا بهما ، كلما اقترب ، كلما إبتعدت أنا بهما وقلت له بلهجة آمرة:

. قف مكانك ، لا تتحرك نحوي خطوة أخرى وإلا ستندم ، ستمشي من هنا وحتى القصر على قدميك.

. كيف سيدتي ؟ المسافة تزيد على عشرة أميال!!!

ـ إذن أن أردت أن تركب جوادك ، فعليك أولا الركوع على ركبتيك وأن تستعطفني ، لقد خدعتني مرتين متتاليتين وسوف تدفع ثمن هذا غاليا من كرامتك.

. إجثو الآن على ركبتيك.....

. سمعا وطاعة مولاتي الجميلة ، ها أنا أجثو على ركبتى ، أطلب الصفح والغفران ، سامحيني مولاتي ، وإلا فلن أسامح أنا نفسي ، أقسم بحبي لك ، أني سأظل وفيا لك ما حييت

. حسنا يا سمو الأميرة فهذا يكفى اليوم .

. هاك لجام جوادك.

امتطى "شهاب" فرسه محاولا اللحاق بي وأنا أعدو بجوادي في اتجاه القصر.

❊ ❊ ❊

مرسوم ملكى

صعد "شهاب" بسرعة إلى غرفة كبير الأطباء ولم يكن في ذهنه إلا سؤال واحد.

طرق الباب بهدوء، وما إن فتح كبير الأطباء حتى صافحه، ثم دخل مباشرة إلى حيث القفص الذى توجد به الحمامة البيضاء وقال:

. كيف حال صغيرتي اليوم سيدي؟

. بخير سمو الأمير.

ـ هل سيستغرق إعادة تحليقها في الفضاء وقتا طويلا؟ الوقت يمر بسرعة، نريد تحديد الخائن قبل فوات الأوان، وقبل أن يبعث بمعلومات مفصلة عن استعداداتنا سيدي، هناك ترتيبات كثيرة لا أستطيع الخوض فيها قبل أن أحدد الخائن ونقبض عليه.....

. هدئ من روعك سمو الأمير، نستطيع أن نطلقها صباح الغد.

. حسنا، سأنصرف الآن للإشراف على الحراسة ومراجعة بعض الأمور.

. تفضل سمو الأمير.

ما إن خرج الأمير "شهاب" من الغرفة حتى التفت كبير الأطباء إلى الحمامة البيضاء وقال لها:

أمامك عمل كثير غدا صغيرتي، سأضع الآن لك بعض الأعشاب المطحونة لكي تساعدك على أداء مهمتك بنجاح.

ما إن دخلت الأميرة "علياء" إلى غرفة نوم أبيها للاطمئنان على صحته، حتى وجدته قد فتح عينيه وهو ينظر إلى سقف غرفة نومه وتبدو على وجهه علامات الجدية والانشغال بأمر مهم، وما إن شعر بوجودها داخل الغرفة حتى قال:

. إجلسي، سأملي عليك مرسومًا ملكيا.

جلست الأميرة وأمسكت بريشة وقالت: لنبدأ أبتي .

ـ أولا: على المسؤل عن الغذاء في المملكة، سرعة شراء الشعير والقمح والدقيق بكميات تكفى حاجة سكان المملكة لفترة لا تقل عن أربعة أشهر، تحسبًا لحصار قد تفرضه علينا مملكة "الجذام".

ثانيا: على قائد الأمن الداخلى

تقييد المتاجرين بأقوات الناس بالأغلال

وتغليظ العقوبة على السارق والمحتال

قطع يد المرتشين وخاطفي الأطفال

ثالثا: تزويد العامة من الناس بالكثير من الحراب والنبال، وتهيئة الشباب منهم على الصبر والاحتمال.

رابعا: على الأمير "شهاب"، تدريب الجند على فنون النزال، استعدادًا ليوم القتال.

يبدأ العمل بهذا المرسوم ما إن يوقع عليه بخاتم الملك.

قام الملك بخلع الخاتم من إصبعه وأعطاه للأميرة "علياء"، ثم قال:

ـ أمامنا عمل كثير يا سمو الأميرة، الوقت يداهمنا، أرسلي الحارس "مهاب" لاستدعاء الأمير "شهاب" الآن.

ما إن قامت الأميرة وفتحت باب غرفة أبيها لإبلاغ الحارس بما طلبه الملك، إذا به يقول:

. مولاتي، الأمير "شهاب" بالخارج يطلب لقاء مولاي.

. حسنا يا "مهاب" أدخله، أبي في انتظاره.

دخل الأمير ثم انحنى قليلا وقال:

ـ لقد كونت عدة مجموعات من أخلص الرجال، وبدأوا مهمتهم من لحظات، وسوف نطلق الحمامة البيضاء صباح الغد مولاي ونرى على أى الشرفات تهبط، لقد أكد كبير الأطباء أنها ستكون على أتم استعداد للتحليق في الفضاء، كبار الجند يقومون الآن بتدريب الشباب على صد هجوم الأعداء.

. حسنا، عليك اتخاذ كافة الاحتياطات لصد الهجوم المتوقع.

. سمعا وطاعة مولاي.

أريد الآن أن أستعرض أمام مولاي بعض النقاط المتعلقة بتقوية الأسوار.

بينما كان الأمير "شهاب" يستعرض تفاصيل الدفاع، كانت الأميرة "علياء" تنظر إليه بعيون تملؤها مشاعر الحب.

ما إن فرغ الأمير "شهاب" من شرح خطته حتى قال:

ـ سوف أُبقي هذه الخطة في طي الكتمان حتى ننتهي من أمر الخائن، أستأذن مولاي في الانصراف.

قامت الأميرة "علياء" من مكانها وتوجهت إلى أبيها وقالت:

. كيف حال أبي الآن؟

ـ أحمد القدير، كلما تحدث إليّ هذا الفتى، أقصد الأمير "شهاب"، كلما ازددت إعجابًا به وبما يقوله، إن الخطة التى وضعها تؤكد ذكاءً متقدا، يبدو أن عمله بصيد الظباء والذئاب والثعالب قد أكسبه خبرة تفوق خبرات الجنود لدينا.

ـ سأدعك الآن يا أبتي تأخذ قسطا من الراحة.

ـ حسنا بنيتي أمامنا عمل كثير في الغد.

❊ ❊ ❊

خطة الحرب

التفتت السيدة العجوز مرة أخرى إليّ وقالت وهي تشير إلى مرآة مكسورة وضعتها إلى جانب الشمعة التى كانت تضيء الغرفة:

. هل ترى هذه المرآة يا ولدي؟

. نعم سيدتي.

ـ كانت إحدى وسائل الحرب التى استخدمها الأمير "شهاب" بذكاء، ليعطي تعليماته للجنود.

. بالله عليكِ كيف يكون هذا؟

. ستعرف يا ولدي لا تتعجل الأمور، فما زالت للأحداث بقية.

في صباح اليوم التالي، استيقظت مبكرا كعادتي وأول ما فعلته هو أنني استدعيت خادمتي "سمراء" وقلت لها:

اذهبي للأمير "شهاب" وأبلغيه أني في انتظره في غرفة كبير الأطباء، واتجهت إلى شرفة غرفتي، لمحته واقفا يتطلع إلى أسراب الحمام التي تحلق في الفضاء بإمعان شديد.

ارتديت ملابسي بسرعة وقصدت غرفة كبير الأطباء، أردت أن أطمئن بسرعة على ما سيقوم به الأمير.

ما هى إلا دقائق معدودة حتى دخل إلى غرفة كبير الأطباء، وجدني الأمير قد أمسكت بالحمامة البيضاء، بعد أن أخرجتها بلطف من القفص

وأخذ كبير الأطباء يشرح لي ما قام به من خياطة الجرح الذى كان تحت جناحها، وقال بعد أن دخل الأمير شهاب الغرفة:

. تستطيع الآن سيدي أن تأخذها.

فبادره سائلا:

. هل تستطيع التحليق الآن؟

. نعم، وبنفس القوة التي كانت تحلق بها من قبل.

نظر إليّ "شهاب" وقال:

هل نتوجه الآن سمو الأميرة إلى مولاي الملك أم أنه ما زال نائمًا؟

ـ هيا بنا إلى جناح الملك يا "شهاب"، أبي يستيقظ دائما بعد شروق الشمس بقليل ليمارس هواية المشى في حديقة القصر ثم يعود فيغتسل، ثم يبدأ عمله اليومي بمراجعة بعض شئون المملكة.

حملت القفص الذى به الحمامة البيضاء، وأسرعنا إلى غرفة نوم الملك، دخلت الأميرة وبعد قليل خرجت وقالت:

. تفضل، لقد انتهى أبي من إفطاره.

دخل الأمير "شهاب" وهو يحمل القفص، وضعه جانبا ومد يده بداخله وأخذ الحمامة بلطف ثم أعطاها للملك الذى تناولها برفق وقال:

ـ أرجو أن تقومى بمهمتك الأخيرة بنجاح صغيرتي، ثم ناولها للأمير "شهاب" وسأله:

. هل أنت واثق من أنها سوف تنجح في الطيران؟

. لقد أكد لي ذلك كبير الأطباء وقال إن صحتها على ما يرام.

ـ إذن هيا بنا، ولكن أريد أولا أن تنشر عددًا من رجالك على أسطح القصر وعلى الأبراج المحيطة، لمتابعة هبوط هذه الحمامة، ولكن ألا

ترى الأعداد الكبيرة من الحمام التى تطير هنا وهناك ربما تدخل هذه الحمامة في وسط هذه الأسراب فلا نستطيع التمييز بينها وبينهم. ـــ سأربط مولاي شريطا أحمر في قدمها وبذلك نستطيع تمييزها من بين الآلاف.

على الفور أصدر الأمير "شهاب" أوامره للجنود بالتمركز على أسطح القصر وعلى الأبراج المحيطة بالقصر وفي الحديقة الرئيسية والحدائق الفرعية لمتابعة هبوط الحمامة البيضاء.

نزلنا جميعا ومعنا الحمامة البيضاء وما إن أطلق أبي لها العنان حتى حلقت في الفضاء، ثم أخذت تدور في دوائر صغيرة ثم تتسع لحظة فلحظة، ثم ضمت جناحيها وبدأت في الهبوط في اتجاه إحدى الشرفات.

ما أن استقرت على حافة الشرفة، فُتح الباب قليلا ثم خرجت منه الأيدي، أمسكت إحداها بالحمامة برفق وباليد الأخرى ربتت على رأسها ثم أدخلتها إلى الغرفة، وأغلقت الباب.

صاح أبي متسائلا: قصر من هذا؟

. قصر رئيس أمن الوزراء مولاي.

. اقبضوا على من فيه، ولا تدعوا أحدا يخرج منه إلا إلى السجن.

. أمر مولاي.

. أيأذن مولاي لى بالكلام.

. نعم.

. من أرسل هذه الحمامة مولاي، ينتظر أن تأتيه ثانية وهي تحمل إجابة عن الأسئلة التى كانت موجودة في اللفافة الورقية الصغيرة، عن

الخطط التى نعدها للدفاع عن المملكة، علينا الآن سيدي أن نكتب خططا وهمية ومضللة، ثم نعيد إرسالها ثانية عن طريق هذه الحمامة.
نظر أبي بإعجاب شديد للأمير "شهاب" وقال:
. متى ستنجز هذا العمل؟
. هذا المساء على أكثر تقدير مولاي.
. حسنا... ابدأ العمل فورا.
انصرف الأمير قاصدًا غرفته لكي يضع الخطط النهائية للدفاع عن المملكة.
كانت أمامه عقبات كثيرة تقف أمام تنفيذ خطته بنجاح، فهو إلى الآن لا يعلم على وجه الدقة متى سيبدأ هجوم الأعداء، ومن أي اتجاه سيكون الهجوم.
عيوننا في مملكة "الجذام" رصدت أعدادًا كثيرة من الأفيال والجمال، هذا بخلاف البغال والحمير والجياد وآلاف السلال وسلالم عملاقة وآلاف الرماح وغيرها الكثير والكثير.
سمع "شهاب " طرقا على باب غرفته ولما أذن لمن بالباب بالدخول، فتحته يا ولدي ثم دخلت، وجدته منهمكا بشدة في دراسة الخطط ويحاول علاج ما يظهر بها من نقاط ضعف.
جلست أمامه أنظر إلى الأوراق التى بدأ في كتابة ملاحظاته بها، نظر إليّ وقال:
. علينا الآن سمو الأميرة أن ندفع بالمعلومة الخاطئة للعدو، وتكون هذه المعلومة هي الطعم وآمل أن يبتلعه، سأرسل معلومة تؤكد أن الجانب الأيمن من سور القلعة هو الأضعف، لذلك سيركزون الهجوم على

الجانب الأيمن من سور القلعة الأشد تحصينا، مع الأخذ في الاعتبار أن لهم عيون في المملكة تنقل إليهم كل صغيرة وكبيرة لذلك شكلت خمس مجموعات من الجنود، خمسة جنود في كل مجموعة، على كل مجموعة منهم أن ترابط فوق أحد التلال المحيطة بالقلعة، ولكن إلى الآن لم أجد وسيلة الاتصال بيننا جميعا، إذا رأوا جنود الأعداء يتقدمون من اتجاه معين.

هذه هي المشكلة الأولى التى أواجهها، فمثلا إذا رأوا الجنود يتجهون صوبنا من اتجاه ما كيف سيقومون بإبلاغنا باقتراب الأعداء.

ثم إن وجود الأفيال في صفوف الأعداء الأولى سوف يثير الرعب في قلب جنودنا، لذلك عليّ بالضرورة إيجاد طريقة ما لإيقاف تقدمها.

عليّ أيضا التفكير في صد هجوم الأعداء قبل اقترابهم من أسوار القلع.

❊ ❊ ❊

الحرب خدعة

وضع "شهاب" وجهه بين يديه وكان يبدو عليه الإرهاق الشديد من كثرة التفكير في حلول لهذه المشكلات وغيرها الكثير، عليه أيضا أن يقوم بإعداد جنوده على مواجهة أي مشكلات قد تطرأ على ساحة المعركة.

قمت من مكاني، ربت على كتفه بهدوء، فرفع رأسه قليلا ونظر إليّ وقال:

ـ لقد حملني مولاي الملك مسئولية كبيرة سمو الأميرة، حينما أصدر المرسوم الملكى بإشرافي على كل كبيرة وصغيرة للدفاع عن المملكة.

. أبتي يثق في أنك تستطيع القيام بهذه المهمة.

ـ سألتقى مولاي الملك هذا المساء، لكي أطلعه على ما أعددته من الخطط الوهمية والتى سوف نرسلها للأعداء لندفعهم للهجوم من المكان المحدد.

استأذنت "شهاب" في الانصراف لمتابعة بعض الأعمال في القصر وأنا مشفقة عليه من هول المسئولية التى حمَّله إياها أبتي.

ما إن خرجت من غرفته وأنا أفكر في قدر هذا الفتى، ماتت أمه وهو صغير، كاد الذئب أن يودى بحياته عندما حاول الدفاع عني وها هو الآن يتحمل عبء الدفاع عن هذه المملكة، يبدو أن الأقدار قد أعدته لهذه المهمة الشاقة.

بادرت السيدة العجوز بالكلام :

ـ ولكن سيدتي ألا ترين أننا دائما ما نظلم الأقدار مع أنها تختار لنا ما يتوائم مع إمكانياتنا ومع ما وهبه لنا القدير من منح وعطايا كثيرة.
ـ نعم يا ولدي، ولكن أحيانا تشفق على إنسان ما، عندما تراه يعانى الكثير ويبدو أنه لا يستطيع أن يتحمل ذلك بمفرده.
ابتسمت وأنا أقول لها:
ـ لقد تأكدت الآن من أن حبك لهذا الفتى قد ملك عليك حياتك.
ـ لن أستطيع يا ولدي أن أنكر هذا الكلام بل على العكس لقد ازداد إعجابي به يوما بعد يوم، لقد شعرت بحب جارف وبأحاسيس لم أشعر بها من قبل، وجاءت ثقة أبي فيه لتعظم من هذه المشاعر تجاهه، وما إن صارحنى بما يكنه لى حتى ازداد قدره في ثنايا فؤادي، لم أستطع أن أوقف تغلغل هذه المشاعر بداخلي، ما إن أستيقظ في الصباح حتى أهرول إلى شرفة غرفته، فأجده واقفا في نفس المكان، تارة ينظر إلى شرفتي وتارة أخرى يتطلع إلى الحمام الذى يحلق في فضاء المملكة ثم نلتقي ثانية في حديقة القصر، ثم نلتقي في حضرة أبي وهو يتدارس معه خطط الدفاع عن المملكة.
لقد شكرت القدير كثيرا يا ولدي، أتعرف؟ رغم أننا نكره الحرب لأنها تسبب الدمار والبؤس والحرمان لكثيرين إلا أنها كانت سببا في إيقاف كافة الاستعدادات التى كانت تجري لإتمام خطبتي على الأمير "ثناء" وكانت سببا في اقترابي من الأمير "شهاب"، حتى أكاد أجزم أن أبتي قد نسي تماما أمر خطبتي من الأمير "ثناء"
في ذلك المساء لم أستطع رؤية الأمير "شهاب" في حضرة أبي.

في تلك الليلة أمر أبي مجلس الحرب بالاجتماع لمناقشة الخطط التي وضع تصورا لها الأمير "شهاب "
ما إن دخل أبي القاعة حتى وقف الحاضرون إجلالا وتعظيما له
بدأ أبي الحديث بترديد بعض الكلمات التي تدعو القدير إلى الوقوف إلى جانبهم في هذه المهمة الشاقة، وما إن انتهى حتى نظر إلى الأمير"شهاب" وقال هل انتهيت من وضع تصور عام لكيفية صد هجوم الأعداء ؟
. نعم مولاي.
. أطلعنا عليه.
تناول الأمير "شهاب" لفافة من الأوراق كانت بجانبه ثم قام بوضعها على منضدة الاجتماعات التى يجلس عليها الملك وقادة مجاس الحرب وقال:
. ليأذن لى مولاي بالحديث.
قال نعم وهو ينظر في الخرائط الموجودة أمامه.
أشار "شهاب" إلى التلال الموجودة في الخرائط حول المملكة وقال:
. حتى هذه اللحظة مولاي لا نعلم على وجه الدقة موعد أو المكان الذى سيسلكه الأعداء في هجومهم على القلعة.
ـ بداية، قمت بوضع خمس مجموعات، فوق كل تل من هذه التلال وستكون وسيلة التواصل بيننا وبينهم مرآة صغيرة تعكس أشعة الشمس في اتجاه أبراج القلعة، ما إن يقوموا برؤية الأعداء يقتربون حتى يقوموا بتحريك هذه المرايا جهة اليمين وجهة اليسار، ستوفر هذه الوسيلة مولاي الوقت في الاستعداد، لأننا سنحتاج لكل دقيقة حتى نتأهب لصد الهجوم.

ـ إن قام الأعداء بالهجوم ليلا أو بعد غروب الشمس، سيشعل قائد المجموعة التى رصدت الهجوم من اتجاهها النار في أغصان الشجر.
التفت الملك للقائد المسئول عن التحصينات الداخلية للأسوار وسأله:
. هل قمت بتقوية الأسوار وأبواب المملكة؟
ـ نعم مولاي، ولكن ما زال يلزمنا الكثير من الوقت لإنهاء أعمال التحصينات، لقد ضاعفت الأعداد من البناة والعمال لاستحضار الصخور من التلال المجاورة وتعلية الأسوار حتى نمنع تسلل أحد منها.
وهنا استأذن "شهاب" في الحديث وقال:
ـ هناك احتمال أن يبدأوا أولا بقصف المملكة من على مسافة بعيدة بكرات من اللهب، حينئذ سيستطيعون إحداث فجوات كبيرة بالأسوار، ومنها يستطيع جندهم الاندفاع بقوة منها وبأعداد غفيرة قد لا نستطيع إيقافهم، أرى مولاي أن نبادرهم نحن بالهجوم ما إن تأتي الإشارة من أعلى التلال باقترابهم من المملكة.
استأذن قائد الجند في الحديث وقال:
ـ إن بادرنا نحن بالهجوم سوف يسقط منا الكثير والكثير ما بين قتلى وجرحى، أرى سيدى أن نتحصن داخل الأسوار وندافع عنها بأرواحنا، أخشى أن تحدث حالة من الرعب داخل قلوب جندنا ما إن يروا الأفيال قادمة فى اتجاههم.
شعر الملك أن الآلام على وشك أن تهاجمه، فأنهى الاجتماع مطالبا القادة بالبحث عن حلول لمشكلة الأفيال وكيفية مواجهتها، على أن يجتمعوا في مساء اليوم التالي.

كان "شهاب" يقضى يومه منذ الصباح الباكر وحتى المساء في إعداد خطط الحرب وكان جزء كبير منها عن خطة التمويه والخداع، فقد كان يعرف أن عيون وجواسيس مملكة "الجذام" متواجدون في زى تجار ويتجولون بحرية في المملكة، يدونون ما يلاحظونه ثم يقومون بإرسال هذه المعلومات عن طريق الحمام الزاجل والذى يحلق في سماء المملكة.

في أحد اجتماعات "شهاب" مع مساعديه اقترح عليه أحدهم أن يصطادوا كل أعداد الحمام الموجودة وذبحها، وبذلك يمكن القضاء على الوسيلة التى تقوم بنقل المعلومات إلى العدو.

جاء رده بأن علينا استغلال نفس الوسيلة ولكن بشكل يخدم أهداف المملكة، فالعدو لن يحار في نقل المعلومة أو الحصول عليها، علينا إذن أن ندس المعلومة الخاطئة وسط كم المعلومات التى يجمعها عملاؤهم، بحيث لا يستطيعون التيقن من المعلومات التى تصلهم عنا ولكن إن استطعنا اصطياد الأعداد الكبيرة من هذا الحمام فسوف يدركون أننا تيقنا من استعدادهم للهجوم علينا فيأخذوا حذرهم، وقد يغيرون من أسلوب الحصول على المعلومة.

أنهى "شهاب" حديثه مع مساعديه ثم توجه مباشرة إلى قائد الشرطة الذى ما إن رآه حتى هب واقفا ثم قال:

- لقد طلبت تحديد موعد مع مولاي الملك لكى أعرض عليه ما توصلنا إليه من معلومات من خلال التحقيق الذى أجريناه مع كل من في قصر وزير أمن الوزراء، بم فيهم الحراس والخدم وأولاده وزوجته، فأفادني رئيس شئون القصر بأن الملك قد أصدر مرسوما ملكيا، أمر فيه بأن

تكون أنت سيدي الأمير المنوط بمتابعة هذا الموضوع، وما إن هممت بالحضور إليك حتى وجدتك سيدي تسبقني بالحضور.

ابتسم "شهاب" وقال:

ـ أمامنا الكثير من المهام ولاوقت لدينا لنضيعه فى المراسم، هات ما عندك، هل استطعت التوصل للخائن؟

ـ طبعا سيدي، إنه كبير الخدم في قصر رئيس أمن الوزراء، وقد اعترف بالتفصيل، وأرشد عن عدد من الجواسيس وعيون مملكة "الجذام"، أطلب الإذن سيدي بالإفراج عن رئيس أمن الوزراء وزوجته وأولاده، وعودتهم إلى القصر مع عودة رئيس أمن الوزراء إلى عمله السابق.

أبدى الأمير "شهاب" دهشته مما يقوله قائد الشرطة وقال وهو يمسك بريشة وورقة وكتب

من واقع السلطات التى منحني إياها جلالة الملك :

أولا : آمر أنا الأمير "شهاب" بقطع رأس الخائن، وكل أتباعه، ومعاونيه الذين أرشد عنهم في صراحة ووضوح، على أن تُعلق رؤوسهم على أبراج الأسوار حتى يرى الناس جزاء الخائنين.

ثانيا: أن يتم إعفاء وزير أمن الوزراء من منصبه بسبب سوء اختياره لأحد العاملين في قصره، مما كان سيعرض حياة عامة الناس في المملكة لخطر جسيم.

التفت إلى قائد الشرطة وقال:

. أحسن اختيار من حولك، تُنجِ نفسك من الهلاك.

ـ أطلعني أولا بأول على ما يجد في هذا الشأن، ولتبقَ عيون الرجال منتبهة، تراقب وترصد كل غريب، ثم قام من مقعده وانصرف قاصدا المكان الذى يتدرب فيه الجنود.

ما إن وصل إلى المكان حتى اقترب الأمير "شهاب" من مساعده وقال:

. المكان مكشوف للغاية ومن السهل أن يراقبهم أي غريب من بعيد، أريد أن يتم نقل مكان تدريب الجنود، وليكن في الأحراش، العيون المتلصصة ترصد كل كبيرة وصغيرة، أريد أن يتدربوا في مكان عليه حراسة مشددة، على أن يتم تدريبهم على كيفية إعداد الفخاخ والشراك، عليك من الآن توفير المواد اللازمة لإعدادها، أريد أن يتدربوا جيدا على كيفية تجنبها حالما يبدأ العدو في الهجوم.

. أمر سيدي.

امتطى الأمير "شهاب" جواده ثم بدأ في التجول في المكان لمراقبة الجنود وهم يتدربون، وكان أحيانا يترجل من جواده ويشترك مع أحدهم إما في المبارزة بالسيف أو في رشق السهام، أو في رمى الرمح نحو هدف ما وأحيانا أخرى كان يشاهد صراع الأذرع، أو المصارعة بالجسد حتى يطمئن على الجند وعلى تدريبهم.

❊ ❊ ❊

عيون الفهد

قامت السيدة العجوز من مقعدها الهزاز بصعوبة بعد أن أشارت لى بأن أمد يدى إليها لتتكئ عليها، ثم مشت في اتجاه الخوذة المعلقة على الحائط ، توقفت أمامها، حدقت فيها بإمعان ثم قالت بصوت خفيض:
أكاد أرى وجهه يطل من داخل هذه الخوذة!!!
اقتربت منها وسألتها:
. ماذا تقولين سيدتي؟
. لاشيء يا ولدي، فقط أردت أن أريك إياها، أتعلم أنني طلبت من الأمير "شهاب" أن يأمر صانع الخوذات بإضافة جزء معدني أعلى الخوذة على شكل فهد يعدو، وأن يضع مكان عينى الفهد قطعتين من البلور حتى يستطيع جندنا التعرف على بعضهم البعض خلال التحامهم مع عشرات الآلاف من جند الأعداء خلال ساعات الليل، أتعرف يا ولدي لقد أنقذت هذه الفكرة البسيطة حياة المئات من أبناء شعبنا، فما زلت أذكر ذلك اليوم جيدًا، وكأنه كان بالأمس القريب.
طلب الملك من الأمير "شهاب" أن يرافقه إلى ساحة تدريب الجند لكي يلتقى بهم ويرفع من روحهم المعنوية وليطمئن بنفسه على تدريبهم.
رافقت أبي و"شهاب" خلال هذه الجولة، كان أبي يتوقف عند كل مجموعة من الجنود وهم يتدربون ثم يوجههم للقيام بتعديل معين أو بتوجيه النصح لهم لتجنب ضربات معينة قد يفاجئهم بها جند الأعداء،

وما إن وصل إلى مجموعة الحدادين الذين كانوا يقومون بصنع السيوف والدروع والخوذات ترجلنا جميعا من على الخيول.
أمسك أبي بأحد السيوف التي انتهى كبير الحدادين من حد نصله ورفعه لأعلى وقال:
. يبدو هذا السيف ثقيلا بعض الشيء، أريد تخفيف ثقله حتى يستطيع الفارس المبارزة به بسهولة، ثم أمسك بأحد الدروع وقال:
ـ يبدو وزن هذا الدرع معتدلا، ولكن هل يستطيع تحمل الضربات المتتالية عليه؟!!!
قال الحداد:
. نعم سيدي، وهو يمسك بالسيف ويقوم بالطرق على الدرع في قوة.
التقطت خوذة، كان أحد الحدادين قد انتهى من صنعها، ثم أشرت على الأمير "شهاب" بصنع هذا الفهد أعلى الخوذة.
بينما كنا نتجول في ساحة تدريب الجند، اقترب قائد حراس القصر من أبي، ترجل عن فرسه، انحنى تحية لأبي ثم قال:
ـ استطاع حراس القصر مولاي اصطياد عدد من الحمام الزاجل عن طريق الشباك، قدمنا لهم الطعام والشراب وحملناهم في أقفاص إلى كبير الأطباء، وهو عاكف الآن على استخراج اللفافات الورقية من تحت أجنحتها، ومد يده بلفافة صغيرة لأبي الذى أمسكها ثم فتحها برفق وقرأ بصوت مرتفع:
معلومات عن عدد الجند. ثم سأل الفارس:
. كم عدد الحمام الزاجل الذي استطعتم اصطياده بالشباك؟
. عشرون زوجا مولاي.

التفت أبي إلى الأمير "شهاب" وقال:

ـ كثف من جهودك، فالحرب أصبحت وشيكة، إذا كان حراس القصر استطاعوا اصطياد عشرين زوجا، فكم عدد الحمام الذى استطاع الوصول لعيونهم في المملكة.

التفت ثانية إلى الفارس وقال:

. أبلغ كبير الأطباء أن عليه بذل أقصى جهد في المحافظة على حياة هذا العدد من الحمام.

أدى الفارس التحية للملك من خلال انحناءة ثم استأذن في الانصراف.

وجه أبي حديثه للأمير "شهاب" قائلا:

عليك الانتهاء من وضع خطة التمويه قبل اجتماع مجلس الحرب القادم، الأعداء ينتظرون على أحر من الجمر المعلومات من عملائهم وعيونهم داخل المملكة.

ـ لقد أتممت وضع الخطة بأدق تفاصيلها مولاي، وهي جاهزة لمراجعتها من مجلس الحرب

. حسنا ..... فلا وقت لدينا، الحرب على الأبواب.

أدركت ما كان يعنيه أبي، لقد كانت نظرات عيني وأنا أستمع إلى "شهاب" وهو يتحدث مع أبي عن خطته في توصيل معلومات مغلوطة للعدو عن استعدادات جندنا، تنطق بما يعتمل في قلبي من مشاعر فياضة تجاه الأمير "شهاب"

عدنا أنا وأبي إلى القصر، ما إن صعد إلى جناحه حتى استأذنته في الانصراف.

أسرعت في اتجاه غرفة الأمير "شهاب"، طرقت الباب برفق ثم أدرت المزلاج، نظرت إلى داخل الغرفة، وجدته جالسا على المنضدة وأمامه خرائط كثيرة، ينظر فيها ثم يعاود كتابة ملاحظات على لفافات ورقية ثم يضعها في أنبوب صغير.

لم يشعر "شهاب" باقترابي منه من شدة انهماكه في دراسة نقاط القوة والضعف وإعداد الخطط اللازمة للدفاع عن المملكة.

ولما رأيت أنه لم يشعر بدخولي، مشيت على أطراف أصابعي متجهة إليه، وما إن توقفت وراء المقعد الذى يجلس عليه، حتى رفعت يدي ووضعتهما على عينيه وأنا أقول ضاحكة:

إن لم يشعر سمو الأمير "شهاب" بدخول الأعداء إلى المملكة كما لم يشعر بدخولي الآن، ستحل علينا الكارثة لا محالة.

أجابني ضاحكا:

ـ ومن قال إنني لم أشعر بدخولك غرفتي سمو الأميرة، ولكني أردت ألا أحرمك من متعة إحساسك بمفاجأتي، وأردت ألا أفسد على نفسي متعة إحساسي براحة يديك وهي على وجهى الآن !!!

وضع "شهاب" راحة يديه على يديَّ ثم قبلهما برفق وأنا مازلت أقف خلف مقعده، ثم أرجع رأسه للوراء قليلا ونظر في عينى وقال:

. هل لى أن أطلب من مولاتي أن تجلس معى بعض الوقت؟

جذب يدي برفق، استدرت حول المنضدة ثم جلست أمامه.

قال وهو يشعر بحجم المسئولية الملقاة على عاتقه:

. أكاد أنتهي مولاتي الجميلة من وضع التفاصيل الأخيرة والتى سأناقشها اليوم مع أعضاء مجلس الحرب في حضور مولاي الملك، الحدث جلل

مولاتي الأميرة، أضع خطتين إحداهما للتمويه والأخرى للتنفيذ على الأرض خلال المعركة، ما أحرص عليه هو أن يتسرب اليأس إلى قلوب جند الأعداء.

لم أعرف كم عدد الساعات التى قضيتها جالسة إلى جانب "شهاب" وهو يراجع تفاصيل خطته ويضع الرتوش الأخيرة عليها.

عاد إلى الخلف بمقعده قليلا وقال:

ـ علينا الآن أن نقصد غرفة كبير الأطباء للاطمئنان على صحة الحمام الزاجل الذى وقع في الأسر.

وما إن فتح باب غرفته وأنا خلفه حتى وجد خادمتي "سمراء" تقف أمامه وهي تقول:

يبدو سمو الأميرة أن مولاي الملك يعانى من الآلام، لقد استدعى كبير الأطباء.

أسرعت بالخروج من خلف "شهاب" وأنا أجرى وهو ورائي في اتجاه غرفة أبي.

توقف "شهاب" بالباب، ودخلت أنا بسرعة فوجدت كبير الأطباء بجانب أبي يعطيه جرعة الدواء ويقول له:

. مولاي الملك أرهق نفسه اليوم ويحتاج إلى الراحة.

نظر أبي إليّ وسأل:

. أين "شهاب"؟

. إنه بالخارج أبتي!

. دعيه يدخل يا "علياء"

أسرعت الأميرة بالخروج وقالت :

. أبي يريد أن يتحدث معك، تفضل بالدخول.
أسرع الأمير شهاب إلى حيث يرقد الملك، انحنى قليلا ثم قال:
. أمر مولاي.
على مجلس الحرب أن يجتمع الليلة، استعرض أمامهم كافة التفاصيل عن خطة الدفاع عن المملكة وعن المعلومات المضللة التى سيحملها الحمام الزاجل، على الأرجح لن أستطيع حضور هذا الاجتماع، الدواء الذى أتناوله يؤدى إلى مضاعفة ساعات نومي، وما إن تفرغوا من استعراض ما أعددته من خطط ومناقشة كل صغيرة مع أعضاء المجلس فلتعرضه عليّ في الصباح الباكر.
استأذن "شهاب" في الخروج قاصدا غرفة عقد الاجتماع، ما إن دخل حتى قال:
مولاي الملك يمر بأزمة صحية طارئة وأمر باستمرار عقد الاجتماع هذا المساء، وطلب عدم تأجيله، على أن أطلعه صباح الغد على ما اتفقنا عليه.
ردد الأمير بعض الكلمات، يطلب فيها من القدير مساعدتهم على تحمل تبعات ماهم مقدمون عليه ومن خلفه كان يردد أعضاء مجلس الحرب، ثم قال:
. العمل يسير على قدم وساق في المملكة وخارجها، بدأ العمال في إضافة الصخور على جانبى الأسوار من الداخل والخارج كى يتحمل ضربات كرات اللهب، والتى أفادت عيوننا في مملكة "الجذام" بأنهم يقومون حاليا بتجهيزها، الجنود يتدربون صباح مساء على القفز من ارتفاعات مختلفة، الفرسان يتدربون على سرعة الارتداد للخلف والمراوغة ثم

الهجوم مرة أخرى، الحدادون يقومون بصنع كميات كبيرة من السيوف والدروع مختلفة الأطوال والأحجام نحن الآن في انتظار المعلومة الأكيدة عن الموعد الذى سيقوم فيه الأعداء بشن هجومهم، تحركات جندهم لن تخفى على عيوننا سواء المتمركزة على التلال المحيطة بالمملكة أو داخل مملكة "الجذام"

أما خطة التموية فتعتمد في الأساس على نقل معلومة واحدة صحيحة وعشرات المعلومات المضللة والخاطئة حتى نشتت انتباههم.

ورغم أني كنت أفضل أن نبدأ نحن بالهجوم إلا أن هذا الاقتراح لم يلقَ قبولا منكم نظرا لاحتمال أن يسقط ضحايا كثيرون من جندنا، لذلك استبدلت خطتي في هذه النقطة بخروج أعداد غفيرة من الفرسان من الأبواب الجانبية للأسوار، ثم يقومون بالالتفاف حول جنود العدو ما إن يتلقوا الإشارة، وهم يتدربون الآن على ذلك.

أبدى أعضاء مجلس الحرب موافقتهم على أغلب ما طرحه الأمير "شهاب" من خطوات لصد هجوم الأعداء، ثم انصرفوا لمتابعة أعمالهم كل في موقعه.

❊ ❊ ❊

ساعة الحسم

باتت ساعة الحسم أقرب مما كان يتصور الجميع في المملكة، العمل يجرى دون توقف، قام العمال والبناة بقطع أحجام متفاوتة من الصخور من الجبال والتلال المحيطة بالمملكة وكانوا يحملونها على عربات تجرها البغال إلى داخل الأسوار ثم يقوم البناة بوضعها فوق بعضها البعض، وكان الجنود يتدربون مع الفرسان في مكان بعيد اختاره الأمير "شهاب" بعناية حتى لا تستطيع أعين الأعداء رصد ما كان يعتزم مفاجأتهم به.

أرسل "شهاب" في طلب شيخ الحدادين، ولما حضر سأله:

. كم يلزمنا من وقت لصنع هذا الشرك؟

أمسك شيخ الحدادين بالفخ وقال:

. القليل من الوقت سيدي!

. عليك بتفحصه بدقة أولا، أنا لا أريد أن نصنع منه أعدادا قليلة، بل أريد منه على الأقل ألف شرك! ثم قدم له شركًا آخر مختلفًا عن سابقه وقال:

. أريد ألفا من هذا، وأمسك بنوع ثالث وقال:

. أريد أيضا ألفا من هذا، وألفا من هذا، وألفا من هذا.....

قدمهم جميعا لشيخ الحدادين وقال:

ـ ما إن تفرغ من صنع الآلاف من كل واحد منها، عليك أن تبلغني على الفور، لا أريد أن يعرف أحد غيرك أو غير من يعملون معك بأمر هذه الفخاخ والشراك.

. سوف نبذل سيدي أقصى طاقتنا للانتهاء منها في أسرع وقت.

. ولكن هناك سؤال يلح عليّ سيدي، أتأذن لي؟

. نعم.

. من أين جئت بهذه الشراك، إنها مختلفة عن بعضها البعض، هذا مُعد لاصطياد الذئاب، وهذا لاصطياد الظباء، وهذا يطبق على أرجل الثعالب، أما هذا فيبدو لاصطياد الأسود والنمور.

. لقد قمت بصنعها بنفسي وكنت أدسها في الغابة لأصطاد فرائسي، الآن أريد أن نصنع منها الكثير ثم ننشرها بأشكال مختلفة وفي أماكن متعددة لنشر حالة من الفزع بين جنود مملكة "الجذام" حينما تطبق على أقدامهم.

لمعت عيون شيخ الحدادين من الاندهاش وقال:

. النصر حليفنا بإذن القدير.

أنهى الأمير "شهاب" حديثه إلى شيخ الحدادين ثم استدعى قائد الفرسان وكبير المهندسين ثم قال لهم:

ـ أريد أن أنصب الآلاف من الشراك والفخاخ في أماكن مختلفة ولكني أخشى أن تصيب الجنود لذلك أقترح على كبير المهندسين أن يعد شكلا هندسيا مؤلفًا من ستة أضلاع، عند التقاء كل ضلع بالآخر يضع نوعا من الشراك، على أن يقوم قائد الفرسان بتعليم الجند تفادى الوقوع في دائرة التقاء كل ضلع بالآخر لوجود فخ بها.

ثم استدعى قائد الجند وسأله، كم عدد الجند المتميزين في إطلاق السهام ولايخطئون أهدافهم؟

. المئات سيدي، لم أجرِ حصرًا لأعدادهم، ولكن جندنا يتدربون على كل فنون القتال سواء المبارزة بالسيف أو رشق الرمح أو استخدام البلطة أو القتال من على ظهور الخيل.

ـ حسنا..... أريد أن أعرف العدد بالتحديد، أريدك أن تختار من بين الجنود أبرز ألف جندي يستطيع أن يصيب هدفه بالسهام وعليك أن تقوم بتدريبهم على تسلق الأشجار على أن يربطوا أنفسهم بارتفاعات لا تقل عن عشرين ذراعا أعلى كل شجرة، ثم عليك تدريبهم على التصويب على أهداف أسفلهم، سوف يسهم هؤلاء في بث الرعب في قلوب الأعداء.

ـ حسنا سيدي، سأبلغك صباح الغد بالعدد الموجود لدينا لإتمام هذه المهمة.

استدعى الأمير "شهاب" أيضا رئيس العمال واطمئن منه على بعض التفاصيل الخاصة بتقوية الأسوار وقال له:

. لقد استطعت أنت ورجالك القيام بعمل يفوق طاقة البشر ولكن هذا هو عهدنا بالرجال الأشداء، أريد فقط أن تأخذ من كبير المهندسين معلومات عن الأماكن التى سوف يقوم العمال بتركيب الفخاخ والشراك بها، قم عند التقاء كل ضلع بالآخر تقوم بربط الحبال بعضها ببعض، على أن نحفر مكانًا يتسع لاختباء أحد الجنود فيه، وما إن تأتيه الإشارة، سيكون المطلوب منه جذب الحبل بقوة، حتى تُفتح الشراك كلها وتكون جاهزة لاصطياد الفريسة، أقصد جند الأعداء.

. سمعا وطاعة سيدي.
. أعلم أن الوقت أزف، وقد يبدأهجوم الأعداء خلال أيام.
. سنتمم المهمة قبل الموعد المحدد سيدي.
استدارت السيدة العجوز وقالت:
لقد كنت أقف أمام هذه الخوذة ساعات وساعات يا ولدي، أتعلم، كنت أشعر بأن وجهه يطل منها، وأحيانا كنت أسمع صوته وهو يحدثني بل وهو يداعبني، كنت لا أستطيع أن أبرح مكاني هذا إلى مقعدي الهزاز إلا عندما أراه قد أغمض عينيه.
أشارت لى السيدة بأن أمد يدي، ففعلت، وضعت عليها يدها اليمنى ثم قالت:
ـ أريد أن أجلس على مقعدي حتى لا يفوتني مشهد دخوله من أبواب هذه القلعة على جواده الأبيض.
جلست على مقعدها، ثم عاودت سرد قصتها لى، وأنا مشفق عليها مما عانته وما زالت تعانيه حتى الآن، شعرت السيدة بما كان يعتمل داخلى ولكنها لم تعره أى اهتمام بل استمرت في سرد قصتها:
كان "شهاب" ياولدي يقضى يومه متنقلا بين جناح أبي ليطلعه على كل كبيرة وصغيرة في الاستعدادات التى تجرى بسرعة لإتمام المهمة، حتى أنه في الفترة التى سبقت اندلاع الحرب بأيام لم أكن أراه إلا بالمصادفة وهو جالس مع أبي يتناقشان في كيفية التغلب على إحدى الصعاب التى ظهرت فجأة.....
أخيرا يا ولدي جاءت ساعة الحسم كما يقولون.

ففي صباح أحد الأيام، وبعد شروق الشمس بقليل، استخدمت إحدى المجموعات المتمركزة على التلال المرآة في إرسال إشارة لنا تنبئ بظهور أول مجموعات من فلول الأعداء.

عكست المرآة أشعة الشمس، فسقطت على أحد الأبراج، أسرع الجندي المتمركز في البرج بالنفخ في بوق مصنوع من قرون الغزلان، فأصدر صوتا مدويا أيقظ كل من بالمملكة.

كان هذا النفير يؤكد أن الأعداء على وشك الاقتراب مسيرة يوم أو بعض يوم من المملكة، وهذه الفترة كانت كافية فى رأي الأمير "شهاب" لكى يتخذ كل جندى موقعه استعدادا للقتال

تنهدت السيدة العجوز تنهيدة طويلة، أدركت معها أنها تحمل الكثير والكثير من الهموم، يبدو أنها تذكرت في تلك اللحظة تفاصيل كثيرة، كانت تارة تنظر إليّ ثم تشير بإصبعها إلى مكان معين خارج الشرفة، ثم تعاود النظر إليّ ثانية إلى أن قالت:

ارتدى كل من في المملكة ملابسه الحرب، كانت تعليمات أبي واضحة في هذا الشأن، ومنها يتم وضع الأطفال الأقل من السبعة أعوام في مخازن الغلال مع السيدات الحوامل والمرضعات، أما الأطفال فوق هذا السن، فعليهم ملء الماء في صفائح صغيرة والاستعداد لإطفاء أى حرائق قد تنشب من جراء كرات اللهب التى سيطلقها الأعداء.

كانت تعليمات الأمير "شهاب" واضحة أيضا لكل الجنود الذين سيختبئون في الحفر الكثيرة التى قام العمال بحفرها في الطرق المؤدية للمملكة، وهي جذب الحبال المربوط بها الفخاخ والشراك في آن واحد ما إن يسمعوا صوت النفير يدوى ثلاث مرات متتالية.

اعتمدت الخطة أيضا اعتمادا كبيرًا على نجاح مطلقي السهام من أعلى الأشجار في الغابات والأحراش المحيطة بالمملكة.

مع أول إشارة من إحدى المجموعات الرابضة فوق التلال عن اقتراب جند الأعداء، تسلل المئات من جندنا حتى وصلوا إلى مواقعهم وتسلقوا الأشجار واستعدوا لإطلاق المئات وربما الآلاف من السهام في اتجاه جند الأعداء.

كان الأمير "شهاب" على يقين من أن جندنا ورغم أنهم سيحاربون ببسالة للدفاع عن المملكة إلا أن المعلومات التى جاءت من عيوننا في مملكة "الجذام" تؤكد أن جند الأعداء أكثر عددا وعتادا، لذلك كانت تعليماته واضحة جلية، لا يتم الالتحام مع جند الأعداء إلا في المراحل الأخيرة من القتال وبعد صدور الأمر المباشر من جلالة الملك، وأن يستمر بث الرعب في قلوب جند الأعداء أولا عن طريق السهام التى تسقط من أعالى الأشجار وعن طريق الفخاخ المنتشرة هنا وهناك.

قبل أن تستطرد السيدة العجوز في سرد تفاصيل المعركة فاجأتها بسؤال عن دورها في هذه الحرب.

. هل ياترى استسلمت لتعليمات أبيها، بأنه إذا حدث هجوم على المملكة أن يحميها الحارس "مهاب"، وأن يصحبها إلى خارج المملكة عبر السرداب الخفى؟

نظرت السيدة العجوز إليّ نظرة عتاب، فهى لم تتوقع أن أبادرها بسؤال كهذا وقالت:

لا يا ولدي، تعليمات أبي ل"مهاب" بحمايتي كانت وأنا في سن صغيرة، ولكن ما إن شب عودي وتجاوزت مرحلة الطفولة كان لي شأن آخر، ليس من بينها الهروب من سرداب إلى خارج القلعة.

شعرت بأنني قد تجاوزت حدًا كبيرا في حديثي مع أميرة سابقة وخشيت أن تكون قد فهمت من كلامي أني أوجه لها إهانة ما فقلت لها:

ـ عفوا سيدتي، لم أقصد المعنى الذى وصلك. أردت فقط أن أعرف بعض الأشياء عن دور ابنة ملك فى أثناء الحرب.

ـ يا ولدى، إن دور النساء لا يقل بأى حال عن دور الرجل في أيام الحرب، فمنهم من يأتي جريحا، أو مصابا بسهم أو برمح أو بغير ذلك، هنا يأتى دورنا، كانت منا نساء لعبن أدوارا مختلفة ومتنوعة، ابتداء من حمل الجرحى وعلاجهم، رعاية الأطفال خلال فترة الحرب، إعداد الطعام وغير ذلك الكثير كل رجال ونساء بل وأطفال المملكة قاموا بأدوار غاية في الشجاعة.

كان الشعار الذى رفعه أبي والأمير "شهاب" هو الموت أو الانتصار .

قال أبي إن دفاعنا عن هذه المملكة ليس فقط هو دفاعنا عن أرواحنا، بل هو دفاع سيستمر صداه لسنوات طويلة، إن استطعنا هزيمة هؤلاء المعتدين فسوف ننعم بالسلام لسنوات طويلة قادمة لأن الممالك المجاورة لن تجرؤ على تكرار خطأ مملكة "الجذام" ومهاجمتنا بعد الآن، انتصارنا عليهم سوف يقف في السنوات القادمة حائلا ضد أطماعهم وأطماع الممالك الأخرى في مملكتنا، علينا إذن أن نضرب بيد من حديد على رؤوسهم.

كانت الفترة التى سيصل فيها جند الأعداء إلى أقرب نقطة لأسوار القلعة كافية لأن يأخذ كل جندى مكانه وموقعه.

فاجأتني السيدة العجوز بسؤال وقالت: أنت طلبت مني الحديث عن تفاصيل استعداداتنا عن الحرب ولكن لم تسألني البتة عن استعدادات مملكة "الجذام" ياولدي؟ مهما كانت استعداداتك، عليك أيضا معرفة ما توصل إليه الجانب الآخر حتى نتجنب مفاجآت كثيرة تبدو غير سارة بالمرة لأنها ستودى بحياة أبرياء.

ـ عفوا سيدتي، لم أقصد الاستهانة، ما كان يشغلني، ومازال هو استعدادات مملكة أبيك، لأسباب كثيرة على رأسها أنها لم يكن لها أطماع في أراضي ليست ملكا لها.

عموما يا ولدي

لقد احتفلوا مبكرا بالانتصار على العظماء

ولم يتحسبوا لقدرات منافسهم أو للدهاء

واصطحبوا معهم كل نفيس وغالٍ حتى النساء

وأحضر الأمراء حيواناتهم بما في ذلك الجراء

غرتهم قدراتهم ونسوا أن للمجتهد نصيب من العطاء

واعتقدوا أنها نزهة خلوية في العراء

كانت هذه الكلمات القليلة عن استعدادات مملكة "الجذام" أبلغ من حكايات كثيرة كان من الممكن أن تسرد السيدة العجوز تفاصيلها، لقد أرادت أن تقول ببساطة إن قادة مملكة "الجذام" قد هزموا أنفسهم قبل أن نهزمهم نحن.

أفقت على صوتها الرخيم وهي تقول:

كنا في المملكة نسمع صوت قرع الطبول وهي تدوي في الفضاء، لقد أرادوا ببساطة أن يبثوا هم الرعب في قلوب جندنا بقرع تلك الطبول مع تحفيز همم جندهم على قتالنا بشجاعة.

كان "شهاب" قد رسم بخط يده على خريطة أمامه خطا، ما إن يقترب منه جند الأعداء حتى يعطى إشارة البدء لإطلاق النفير بنغمة معينة، حينئذ يبدأ راشقوا السهام من أعلى الأشجار في إطلاقها بكثافة عالية، لأن جند الأعداء قد أصبحوا في مرمى الهدف.

وبالفعل ما إن اقتربوا من ذلك الخط حتى انهالت آلاف السهام في اتجاه جند الأعداء، أصيب منهم من أصيب، وقتل منهم الكثير.

لم تكن هذه هي النقطة الفاصلة في الحرب بيننا بل هو رد فعل قادتهم، لم يصدروا أوامرهم بالتراجع، بل بلغ بهم الكبر حدا لا يمكن وصفه، لقد أصر قائدهم على المضى قدما نحو أسوار القلعة.

ما إن أصدر قائد جند مملكة "الجذام" أوامره بالتقدم حتى أصدر أبي أوامره بتنفيذ الجزء التالي من الخطة الموضوعة بإحكام.

أرسل "شهاب" أحد الفرسان إلى سور القلعة لكى يبلغ نافخ البوق بإطلاق النغمة الثانية، ما أن أطلقها حتى جذب المئات من الجنود الحبال المتصلة بالفخاخ والشراك المنصوبة على الأرض بعناية وقدرة فائقة.

على إثر ذلك سقط المئات من جند الأعداء ما بين قتيل وجريح .

استشاط قائد جند مملكة "الجذام" غضبا، بدلا من أن يراجع نفسه ويعود من حيث أتى، أو على الأقل يتمهل لكى يعيد ترتيب خطته، أصدر الأمر لجنده بإطلاق كرات اللهب في اتجاه المملكة، هذا ما كان يتحسب

منه أبي و"شهاب" خلال مناقشاتهم الطويلة كل ليلة، كان رأي أبي أن على جندنا أن يندفعوا في تلك اللحظة في اتجاه أبراج الأسوار ويبدأون في رشق جند الأعداء بالرماح العملاقة والتى صنعها الحدادون ببراعة فائقة، إلا أن رأى "شهاب" كان منع هذه الآلات العملاقة من الوصول إلى نقاط كان قد حددها سلفا بدقة بالغة لأن عبور هذه النقاط سيجعل القلعة في مرمى كرات اللهب، ولكن السؤال الذى كان يشغله هو كيف يمكن إيقاف تقدمها.

خلال الأيام التى سبقت الحرب حصل "شهاب" على معلومة مهمة عن قدرة هذه الآلات على إطلاق كرات اللهب لمسافات متباينة، لذلك أمر جنده بأن يعملوا ما في قدرتهم لإيقاف تقدمها.

عندئذ أشار عليه أحد مساعديه بأن يرافقه العشرات من الجند ويختبئون خلف إحدى التلال القريبة، وما إن يتقدم جند الأعداء في اتجاه أسوار المملكة، يأتى الجنود ويطوقوهم من الخلف، مع اندفاع عدد أخر من الجنود من داخل القلعة، بهذه الخطة المحكمة يستطيع جندنا تطويقهم من كل جانب.

وبالفعل يا ولدي، ما إن أطلق نافخ البوق النغمة التى أُتفق عليها حتى إنطلق الآلاف من جندنا في لحظة واحدة خارجين من أبواب المملكة في اتجاه جند الأعداء.

لقد تحسب أبي و"شهاب" لكل صغيرة قبل الكبيرة في هذه المعركة .

لقد أصيب نافخ البوق إصابة بالغة من أحد السهام الطائشة، أعاقته هذه الإصابة عن أداء مهمته.

كانت التعليمات واضحة وتقضى بأن يتم استخدام الأعلام في حالة حدوث مكروه لنافخ البوق عندما يرفع الجندى المكلف بهذه المهمة العلم الأبيض، يندفع الجنود من الأبواب إلى الخارج، وما إن يرفع العلم الأخضر، يخرج الآلاف غيرهم من الخنادق التى قام العمال بحفرها في الجزء الغربي من المملكة، وعندما يرفع الجندى العلم الأحمر يندفع الجنود من الخندق في الجزء الشرقى من المملكة، وذلك بهدف تطويق الأعداء من كل جانب، ويعنى رفع العلم الأسود ملاحقة جند الأعداء حال انسحابهم.

لقد حدث هذا تقريبا بالحرف ياولدي، التحم عشرات الآلاف من الجند في معركة كان النصر فيها حليفنا.

ما أن بدأت الشمس في الغروب حتى بدأت بشائر النصر تلوح في الأفق.

❊ ❊ ❊

النصر المبين

أعادت السيدة العجوز رأسها للوراء وأغمضت عينيها بعد أن نظرت برهة لأعلى ثم قالت:

لا أريد يا ولدي أن أثقل عليك بسرد تفاصيل عن الحرب أو عن شجاعة الأمير "شهاب" أو عن ذكاء أبي في توجيه قادة الجند خلال المعركة، ولكني في نفس الوقت لا أستطيع أن أتجاهل وصف بعض المشاهد.

كان مشهد جنود الأعداء وهم يقعون في الشراك والفخاخ التى أمر "شهاب" بصنعها ووضعها في أماكن متفرقة ومختلفة متفق عليها من قبل مساعديه في الطريق الذى سيسلكه جند الأعداء مثير للغاية، لقد بدأ الرعب يسري في قلوب جند الأعداء، ما إن وقعت أعداد كثيرة في الشراك ما بين قتيل وجريح، لا أستطيع أيضا أن أنسى حالة الهرج والمرج التى سرت في صفوف جند الأعداء بعد أن إنهالت السهام التى رشقها جندنا وهم معلقون في أعالى الأشجار في إتجاههم.

لقد استشاط قائدهم غضبا وأمر جنده الذين يركبون الأفيال بالتقدم.

في هذه اللحظة أمر أبي المئات من جندنا برفع مشاعل النار عاليا وهم يركبون الجمال ويتجهون صوب الأفيال التى تركض نحو جندنا.

ما إن رأت الأفيال مشاعل النار حتى استدارت عائدة إلى حيث جند الأعداء، رغم محاولات راكبيها السيطرة على عودتها للخلف.

في أثناء عودتها وهي فى حالة خوف شديد من مشاعل النار، كانت تدهس بأقدامها جندهم الذين لم يستطيعوا الابتعاد بسرعة من طريقها وهي تجرى خائفة.

إن استدارة الأفيال وعودتها للخلف بعثت في جندنا قوة ورفعت من روحهم المعنوية، الأمر الذى دفع بقائد مملكة "الجذام" إلى فتح أقفاص الأسود والضباع والنمور والذئاب وغيرها من الكواسر ودفعها في اتجاه جندنا.

في هذه اللحظة أشار "شهاب" على أبي أن يتقدم قارعوا الطبول إلى الأمام مع استمرارهم في قرع الطبول بقوة لبث الرعب في قلوب هذه الضواري.

وبالفعل استدارت هي الأخرى تعدو عائدة في اتجاه جند الأعداء، الذين بدأوا يتفرقون في التلال المحيطة بالقلعة.

رغم بسالة جندنا في التصدي لجند مملكة "الجذام" إلا أن عددا كبيرًا منهم استطاع اختراق صفوف جندنا وحاولوا تسلق أسوار القلعة، فكان مصيرهم الاحتراق بالزيت المغلي والذي كنا نسكبه عليهم من أعلى الأسوار.

هذه يا ولدي كانت بعض الأحداث التى دارت في المعركة والتى استمرت منذ الصباح الباكر وحتى قبل غروب الشمس بقليل.

رفعت السيدة العجوز يدها اليمنى ثم أشارت بإصبعها إلى خارج الشرفة ثم قالت:

. هل ترى ذلك البرج يا ولدي؟

. نعم سيدتي.

.لقد كنت أنا ومجموعة كبيرة من النساء نختبئ فيه وما إن يحاول أحد من جند الأعداء الاقتراب من أسفله، كنا نلقى عليه الزيت المغلي، فيسرع بالابتعاد وهو يصرخ من شدة الألم.

كنت أرى من هذا البرج ساحة المعركة بالكامل، وكنت أراقب تحركات جندنا وتحركات جند الأعداء، وما بين لحظة وأخرى كنت ألقى نظرة اطمئنان على أبي وعلى الأمير "شهاب" والذى كان يتلقى التعليمات كاملة من أبي ثم يبعث بأحد جنوده لإبلاغها إلى نافخ البوق أو رافع الأعلام أو إلى قائد الفرسان.....

إلى أن جاءت اللحظة الحاسمة.

كان أبي يركب جواده المفضل الملقب بـ " الأكثم " وإلى جانبه "شهاب" بجواده الأبيض الملقب ب "الأشهب" وكان يشير بإصبعه إلى أماكن مختلفة يجرى فيها القتال بين جندنا وبين جند مملكة "الجذام"، لم أعرف حتى هذه اللحظة الحديث الذى دار بينهما، أعتقد أنه ربما كان يبدى ملاحظات معينة على سير القتال، خفض أبي ذراعه التى كان يشير بها وأمسك جانبه الأيمن ثم انحنى وهو مازال راكبا جواده، حتى رأيت رأسه تكاد تلامس رقبة جواده من الخلف.

صرخت بأعلى صوتي، أطلب من الأمير "شهاب" أن يساعد أبي على الاعتدال وهو يمتطى فرسه حتى لايسقط على الأرض !!!

لقد أدركت عن يقين أن الإجهد قد بلغ أشده بأبي وأن الآلام التى كان يعانى منها قد هاجمته ثانية، كنت في أشد لحظات الخوف في هذه الأثناء لأسباب كثيرة، إن سقوط أبي من على جواده سيؤدي إلى حالة من الفوضى بين جندنا، وبالتأكيد سينعكس هذا على حالتهم المعنوية،

ربما سيعتقد البعض أن الملك قد أصيب خلال المعركة وهذا سيرفع من الروح المعنوية لجند الأعداء، وفي المقابل سيهبط بالروح المعنوية لجندنا.

ورغم أننى كنت مدركة عن يقين أن هذه الآلام ستزول بعد أن يتناول أبي جرعة دوائه التى أعدها كبير الأطباء، والذى كان يرافق أبى كظله في المعركة إلا أننى لم أمنع نفسي من الخوف على صحة أبي.

بينما كنت أصرخ طالبة الأمير "شهاب" بمساعدة أبي على ألا يقع من على جواده، كنت على يقين أيضا أنه لن يسمعنى، ولكن لم أستطع أن أمنع نفسي من الصراخ.....

. أحمد القدير يا ولدي، لم يشعر أحد من الجند بما حدث لأبي، القليل فقط من المحيطين به هم الذين شعروا بأن صحة الملك ليست على ما يرام.

رافق "شهاب" وكبير الأطباء أبي إلى الخيمة المُعدة لاستراحته خلال ساعات الليل.

بينما كان كبير الأطباء يقوم بإحضار الدواء من حقيبته، أشار أبي إلى "شهاب" بالاقتراب منه، خلع أبي خاتم المملكة من إصبعه، ثم مد يده لـ"شهاب" وألبسه إياه وقال:

عليك أن تقود ما تبقى من المعركة، أثق في أنك قادر على تنفيذ هذه المهمة.

ولكن مولاي مازال في المعركة الكثير وخبرتي محدودة في أن أقود هذه الأعداد الهائلة من الجنود . شجاعتك سوف تساعدك كثيرا على إنجاز

مهمتك، لا تقلل من شأن موهبتك يا ولدي، أنا أثق في قدرتك علىك أن تتولى هذه المهمة الآن.

. سمعا وطاعة مولاي الملك. هل يأذن مولاي بمطاردة فلول جند الأعداء الذين فروا إلى التلال المجاورة، حتى نقضى عليهم قضاءً مبرما قبل أن يعيدوا ترتيب صفوفهم ويعاودوا الهجوم علينا.

ـ أوصيك يا ولدي ألا تسرف في الشجاعة حتى لا تهلك الجند بشجاعتك!!!

. سمعا وطاعة مولاي.

ارتدى الأمير "شهاب" خاتم الملك وخرج من الخيمة، ثم أصدر أوامره لقادة الجند بملاحقة جند الأعداء في التلال المحيطة بالقلعة والقضاء عليهم وأمر بعدم فتح الأبواب الرئيسية للقلعة، بل فتح الأبواب الجانبية لإخلاء القتلى والجرحى من ميدان القتال إلى داخل القلعة.

أمر أيضا باستمرار قرع طبول الحرب طوال الليل لبث الرعب والخوف في قلوب الأعداء.

عاد الأمير "شهاب" مرة أخرى إلى خيمة أبي، ما إن استأذن في الدخول، حتى دعاه أبي ليستمع منه إلى تفاصيل المناوشات الأخيرة والتي لم يستطع متابعتها عن قرب بسبب مرضه.

أعاد الأمير "شهاب" خاتم الملك لأبي وهو يقول:

. مولاي، لقد تشتت شمل جند الأعداء وتفرقوا في التلال، لن تقوم لهم قائمة بعد الآن، لقد انتصرنا نصرا مبينا.

. حمدا للقدير على نصره لنا.

. ماذا ستفعل الآن يا "شهاب"؟

. أطلب الإذن مولاي لمطاردة جند الأعداء.
. حسنا يا "شهاب" أتمم مهمتك.....
انحنى الأمير "شهاب" وهو يخرج من خيمة الملك، ثم توجه إلى جواده وامتطاه وأسرع يعدو في اتجاه التلال، ومن ورائه العشرات من جندنا.
اعتدلت السيدة العجوز في جلستها، وقالت:
أشعر بالوحشة الشديدة، كلما تذكرت هذه الأحداث اقشعر بدني مما حدث له.
كان الأمير "شهاب" يريد أن يطمئن على الجند قبل أن يركن إلى الراحة في ساعات الليل، وكان يخطط للعودة إلى خيمته قبل أن يسدل الليل ستائره على ساحة القتال. كلما هم بأن يعود أدراجه إلى خيمته، جال بخاطره أن يتفقد مكانا آخر وسط التلال، لكى يتأكد بنفسه من خلوه من جند الأعداء، كان كل ما يخشاه هو أن يفاجئهم جند الأعداء بعد أن يعيدوا ترتيب صفوفهم.
أخيرا قرر العودة إلى خيمته، بينما هو يسير بجواده بين الأشجار الكثيفة، سمع صوت زئير أسد يأتيه من أمامه.
لمح أسدا وقد اشتبكت إحدى قدميه في إحدى الشراك التى نصبها لجنود الأعداء، وبدا وكأنه يحتضر، سحب "شهاب" أحد سهامه من الجراب المعلق على ظهره، ثم رشق به الأسد الذى كان يزأر بقوة، أراد "شهاب" أن يخلصه مما يعانيه من ألم، ما إن استقر السهم بين ضلوع الأسد حتى انتفض بقوة وأصدر زئيرًا كالرعد، هز المكان.
بينما هو ينتفض بقوة استطاع أن يخلص قدمه من الشرك، اندفع يعدو في اتجاه "شهاب"، سحب سهما آخر ثم أطلقه في اتجاه الأسد

الـذى كانـت تفصـله عـن فـرس الأمير بضـع خطـوات أصـابه السـهم في مقتل، فرقد على جانبه مصدرا زئيرا متواصلا.

انـدفاع الأسـد في اتجـاه "شـهاب" بـث الرعـب في قلـب فرسـه " الأشـهب"، فوقـف على قدميـه الخلفيتين ورفـع قوائمـه الأماميـة، سـقط الأمير على الأرض واندفع الفرس يجرى بين الأشجار مبتعدا.

قام "شهاب" من على الأرض بسرعة ثم أطلق صفيرا متواصلا، ينادى به على جواده، لكنه لم يلبّ النداء، بل أسرع يعدو في اتجاه القلعة.

❊ ❊ ❊

الأسير

أطلق الأمير "شهاب" صفيرًا متقطعا تارة وصفيرا متواصلا تارة أخرى، ولكن جواده كان قد انطلق بأقصى سرعته في اتجاه أبواب القلعة هربا من الأسد الذى ظن أنه يطارده.

توقف الأمير "شهاب"، لحظات وتلفت حوله، فلم يرَ شيئا، لقد بدأ الليل في إسدال ستائره على المكان.

كلما تلفت حوله، شعر بأن هناك عيونًا تراقبه، وتتحين الفرصة للانقضاض عليه، شهر سيفه في الهواء ظنا منه أنها عيون الضواري التى طاردها هو وجنوده، فاندفعت في اتجاه جند العدو.

قال وهو يحدث نفسه:

ربما عادت من جديد تبحث عن وليمة أو فريسة تسد بها جوعها.

في هذه اللحظة هوت من عين السيدة العجوز دمعة على وجنتها، وعادت إلى سرد قصتها حتى دون أن تحاول أن مسحها، كأنما تقول في نفسها، وما الفائدة؟

هذه الدمعة لن تكون الأخيرة!!!

نظرت إليّ بعين حزينة وقالت بصوت مرتفع قليلا:

ليتني ما أشرت عليه بفعل ذلك..... ليتني ما أشرت عليه بفعل ذلك؟

اقتربت منها قليلا وانحنيت

. هوني عليك سيدتي، لمَ تقولين ذلك؟ وماذا تقصدين؟

ذلك الفهد يا ولدي، والذى أشرت على الأمير "شهاب" بأن يأمر شيخ الحدادين بصنعه، وبأن يضعوا مكان عينيه قطعتي زجاج أو بلور لكي يتعرف جندنا على بعضهم البعض خلال المعارك التى ظننت أنها ستستمر طوال ساعات الليل، هذا الفهد كان سببًا في أن يتعرف عليه جنود مملكة "الجذام"، لقد كانت العيون التى تراقبه ليست عيون الضوابى أو الكواسر، لقد كانت عيون جند الأعداء.

ماهى إلا لحظات حتى التف حوله العشرات من جند الأعداء والذين فروا إلى التلال واتخذوا منها ملجأ بعد أن طردهم جندنا، لم تكن بسالة وشجاعة الأمير "شهاب" كافية لأن يتغلب على الجنود الكُثر الذين أحاطوا به، قاتل ببسالة، أوقع منهم الكثير ما بين قتيل أو جريح، في النهاية خارت قواه مما بذله من مجهود في الدفاع عن نفسه، استطاع أحد الجنود أن يطرحه أرضا بركلة قوية من قدمه بعد أن وقع السيف من يده، حاول وهو راكع على ركبتيه أن يصد ضربات سيوفهم بدرعه، ولكن لا فائدة

لقد انهالوا عليه بالركل من كل اتجاه حتى أُغشي عليه

هم أحدهم بقتله، وما إن رفع سيفه لأعلى حتى سمع صوتًا يأمره بألا يفعل قائلا:

. إياك أن تفعل!!!

. لقد أصاب منا الكثير سيدي، أعلم وسيدفع ثمن هذا غاليا

. علينا أن نصحبه لقائدنا.

. دعنى سيدي أجهز عليه، لكى أنتقم لمن قتلهم بسيفه.

. سأدعك تفعل به ما هو أسوأ!!!

. ولكن دعنا نصحبه إلى القائد، لقد أبلغته بوقوع صيد ثمين في جعبتنا اقتاده جند الأعداء يا ولدي، بعد أن قيدوه بالحبال، وضعوا القيود في قدميه وربطوه في أحد الجمال وسحلوا جسده على الرمال

. ولكن كيف عرفت سيدتي بما حدث للأمير "شهاب"؟

ـ لقد رأيت ما حدث يا ولدي بالتفصيل من خلال هذه، ثم مدت يدها وأمسكت البلورة السحرية وقالت:

لقد سألتني عن حبيبتك وأردت أن ترى ما سيحدث لها من خلال هذه البلورة، ألا تذكر أنى قلت لك، إنني أرى ما حدث فقط للأمير "شهاب" ولا أستطيع أن أرى من خلالها ما سيحدث غدا، فهذا يا ولدي ملك لخالق الغد وليس لأحد عليه سلطان.

لقد رأيت الكثير من خلال هذه البللورة السحرية، فما إن أضع يدي عليها حتى أرى بوضوح ما حدث تفصيلا.

أغمضت السيدة العجوز عينيها ثم قالت:

وصلوا إلى مملكة "الجذام" وفي يده الأغلال
ينزف الدماء من جسده العارى إلا من سروال
فتح الحارس باب القلعة فسقط المطر وزادت الأوحال
كان الحارس عملاقا كأنه من نسيج الخيال
دميم الصورة منتفخ الأوداج ورأس كالبغال
عيون جاحظة بياضها إحمرار كعيون الجمال
أنف طويل يتحرك كأنوف الأفيال
والأذن تنفث الدخان جهة اليمين والشمال
شعورهم طويلة ومجدولة بالحبال

توقف الركب في الحال
أشار الحارس لطريق يشق الجبال
على جوانبه جثث تأكلها الأسود والأشبال
في نهايته بحيرة مليئة بدماء الغزال
تسبح فيها ساحرات مقيدات بالأغلال
والسحرة جالسون كأنما يحملون الأثقال
ورجال طاعنون في السن يبدون كالأطفال
وأشجار نخيل تسقط منها النعال
وتماثيل سوداء لنساء يغوين الرجال
ودخان وروائح كريهة تصل لأميال
وعبيد يضربون الأسياد لشد الرحال
وإماء يضربن الأحرار من النساء ليرفعن الأثقال
وأطفال يبحثون عن لقيمات صعبة المنال
والأرض تهتز كأن بها زلزال
ألقى الحراس بالأمير "شهاب" على الأرض في الأوحال بعد أن اقتادوه إلى زعيم مملكة "الجذام" في الحال.

❊ ❊ ❊

أين الأمير.....؟

بدأت السيدة العجوز في سرد أقصى لحظة مرت عليها تنهدت في البداية، ثم أرجعت رأسها للوراء، ثم أغمضت عينيها طويلا، هوت الدموع بغزارة على خديها، علا صوت نحيبها وأنا أحاول أن أهدئ من روعها، وأربت على كتفها وأحيانا أخرى أستعطفها بلطف:

. سيدتي الأميرة أستحلفك بالقدير أن تهدئي.

. كيف يا ولدي أنسى تلك اللحظة؟ لقد كنت أقف في البرج الأيمن فوق السور أنا وبعض النساء، نتابع سير المعارك ونقوم بدورنا في توجيه البعض منهن للعناية بالجرحى ونسكب الزيت المغلى على رؤوس الجند الذين كانوا يحاولون تسلق الأسوار، وكنا نوجه الأطفال لإحضار الماء لإطفاء بعض الحرائق التى شبت هنا وهناك.

كنت منحنية أحاول جذب أحد الحبال لأعلى البرج في نهايته دلو صغير، وضعت فيه النساء الزيت المغلى، وما إن جذبته أنا وخادمتي "سمراء" لأعلى، رفعت رأسي لكى نضعه على السور ونحن في حالة تأهب لنسكبه على رأس أحد الجنود الأعداء، استطاع أن يتسلل محاولا صعود السور، لمحت جواد الأمير "شهاب" يأتى من بعيد.

أشرت إليه بيدي وسألت جاريتي "سمراء" بدهشة:

. أليس هذا جواد الأمير "شهاب"؟

رفعت "سمراء" رأسها ونظرت إلى حيث أشير وقالت:

. لا يبدو هو مولاتى .

اقترب الجواد قليلا وهو يعدو في اتجاه أبواب القلعة، فقلت يا "سمراء":

. إنه هو ..... إنه جواد الأمير "شهاب"

أحسست يا ولدي في هذه اللحظة أن قلبي قد توقف عن الحركة، تركت ما بيدي، وأسرعت أنزل درجات البرج، أنا أصرخ بأعلى صوتي لقد حدث له مكروه، لقد أحسست أن شيئا ما قد حدث وأن حياة الأمير في خطر. ما إن وطئت قدماى الأرض، حتى أسرعت إلى الأبواب الأمامية للأسوار، عندما رآني حراس الأبواب أجرى في اتجاههم، فتحوها بسرعة، عدوت بأقصى سرعتي بين الجند الذين كانوا يتناوشون في مجموعات صغيرة.

توقف الجواد عن العدو ما إن اقترب من أسوار القلعة، ولجامه يتدلى على الأرض، اقتربت منه في هدوء، وأمسكت بلجامه ثم أمتطيته في سرعة واستدرت به في اتجاه الأحراش التى رأيته آتيا منها.

ما إن رأنى الجنود وأنا أعدو بجواد الأمير "شهاب" إلى الأحراش حتى أسرعوا بجيادهم خلفي محاولين اللحاق بي، أسرع أحدهم إلى خيمة أبي، استأذن في الدخول، ولما أذن له انحنى تحية للملك ثم قال:

. عفوا مولاي الملك ولكن الأمر خطير.....

ظهرت علامات القلق على وجه الملك، قام من مكانه وقال:

. ماذا حدث؟ تكلم وبسرعة.

شاهدنا سمو الأميرة "علياء" ممتطية جواد الأمير "شهاب" وهي تعدو به في اتجاه الأحراش.

. هل حدث لها مكروه؟

. لا مولاي.

سأل وهو يتأهب للخروج من خيمته؟

. وأين حراسها؟

. غافلتهم وتسللت من بين الجنود إلى خارج القلعة، وهم يلاحقونها الآن سيدي.

. أسرعوا باستدعاء الفرسان.

. سمعا وطاعة مولاي.

. هل تعرف في أي اتجاه سارت الأميرة؟

. نعم مولاي، في هذا الاتجاه وهو يشير إلى الأحراش.

امتطى الملك فرسه، وأخذ يعدو إلى حيث أشار الفارس، ومن ورائه عشرات الجند.

خلال دقائق وصل الملك ومن حوله الجند والحراس إلى المكان الذى شوهدت تتجه نحوه الأميرة "علياء"

أمر الملك باستخدام المشاعل في البحث عن الأميرة.

وأخذ الجنود والحراس يجوبون المكان حتى سمعوا صوت أحد الجنود وهو يصرخ بصوت جهورى:

. وجدتها مولاي.

اقترب الملك بجواده إلى حيث أشار الجندى ومن حوله حراسه وفرسان القلعة.

أمر الملك الجند بتطويق المكان لئلا يحدث ما لا يحمد عقباه.

ترجل من على فرسه "الأكثم" بسرعة واتجه صوب الأميرة "علياء"، حيث كانت جاثية على الأرض وهي تمسك بخوذة الأمير "شهاب" وعلى

بضع خطوات منها سيف الأمير ملقى على الأرض ودرعه قد تفتت إلى قطع متناثرة في المكان.

اقترب الملك فى هدوء من الأميرة وقال بصوت بالغ الحنو:

ـ ماذا حدث بنيتي؟ خاطرت بحياتك، لقد جن جنوني حينما أبلغني الجنود أنك غافلت حراسك واتجهت إلى الأحراش !!! ارفعي رأسك يا بنيتي، هات يدك، سأساعدك على الوقوف على قدميك، هاك يدي استندي عليها.

ظلت الأميرة جاثية على ركبتيها وجبينها على الأرض محتضنة خوذة الأمير"شهاب" وقالت في صوت يملؤه البكاء، لن أذهب دونه يا أبتي، لن أعود إلى القلعة إلا ومعي "شهاب"

. أرجوك بنيتي لا تحمليني ما لا أطيق، هيا بنا الآن وسوف يقوم الجنود بالبحث عنه هنا وهناك.

لم ترد الأميرة، كان جسمها ينتفض من البكاء، رفعت رأسها ببطء ونظرت إليه.

اقترب منها وهو ماد إليها يده.

. هات يدك بنيتي، ستكون الأمور على ما يرام.

صمتت الأميرة، ظلت تنظر لأبيها وهو يقف أمامها مادا يده إليها.

كان وجه الأميرة يملؤه الحزن، ودموعها تهوى بغزارة على وجهها.

اقترب أبيها خطوة أخرى وانحنى، ثم حملها ووضعها برفق على جواده وهي محتضنة بكلتا يديها خوذة الأمير"شهاب"

رفعت السيدة العجوز رأسها لأعلى ونظرت إلى السماء من خلال شرفة حجرتها كأنما كانت تناجى ربها لكى يلطف بها وبحبيبها الأمير "شهاب"

كان صوتها خفيضا للغاية، حاولت أن أسترق السمع، علني أستطيع مساعدتها، ولكنى فشلت.

انحنيت قليلا وقلت:

. هل تريدين شيئا سيدتي؟

قالت بعد أن انتهت على سؤالى:

. لا يا ولدى، لن تستطيع أن تحقق لى ما أصبو إلي ، أنت مازلت مشغولا فقط بحبيبتك، ما سأطلبه منك يحتاج لأن يكون قلبك خاليا مما يشغله.

. سأحاول سيدتي ولكن لا أستطيع أن أعدك بذلك.

. حسنا يا ولدي.

تناول هذه.....

أمسكت البلورة السحرية.

. ضع كلتا يديك عليها، أغمض عينيك، لا تجعل شيئا يجول بخاطرك أو يشتت ذهنك وأنا أحدثك.....

. تفضلي سيدتى.

ـ ارفع كلتا يديك قليلا عن البلورة، ولا تفتح عينيك حتى أنتهى من حديثي إليك.

. سمعا وطاعة سيدتي.

. ماذا ترى الآن؟

صحراء شاسعة مترامية الأطراف، ولكن ما هذا؟ إنه جمل يسير على الرمال التى تبدو ساخنة، فالشمس ساطعة، هناك رجل مربوط من يديه بالحبال، وسرواله ممزق.

آثار السحل على الرمال واضحة سيدتى على صدره وعلى ظهره، أحيانا ينقلب على صدره وأحيانا أخرى على ظهره، تغطى الدماء وجهه الأسمر، يبدو وكأنه مغشي عليه، أرى أيضا جنودًا كُثر حوله من كل اتجاه وبأيديهم السياط، يضربونه بها على ظهره كلما انقلب على بطنه، ثم يضربونه على صدره ما إن ينقلب على ظهره، أرى جنديا يقترب من قدمه العارية إلا من ما يستر عورته، ويركله بشدة، علامات الألم واضحة على وجهه وهو يصرخ.

. ماهذه الأسوار سيدتى؟ أإنها تبدو لقلعة!

توقف الجنود أمام الأبوب، هناك حراس أيضا يقفون أمام الأبواب، ومن هذا؟ إنه يبدو كبيرهم.....

أوقف أحدهم الجمل، إنه يقوم بفك الحبل المربوط بكلتا يدي الرجل.

. لم أعد أري شيئا سيدتي، لقد التفوا كلهم حوله.

لقد تحرك كبيرهم ببطء شديد، إنه يترنح في مشيته، ألقى بما كان في يده على الأرض، يبدو وكأنه كأس ، لقد إنسكب ما بها على الأرض، إنها دماء..... ياإلهى إنها دماء.....

يقترب من الرجل، رفعوه عاليا ثم ألقوا به ثانية عند قدم كبيرهم، الذى يضحك بطريقة هستيرية، صوت ضحكته يشبه صراخ الخنازير وهي تتألم، إنه يركله هو أيضا في بطنه، إنهم ينتقمون منه أشد انتقام.

. أنت لم ترَ شيئا بعد يا ولدي!!!

. لم تعد لديّ القدرة سيدتي على رؤية ما يحدث لهذا الرجل، سأكتفى فقط بما أسمعه منك!

ارفع يدك من على البلورة، لقد رأيت ما حدث للأمير "شهاب" آلاف المرات، أمر كبيرهم ياولدى بجلده بالسياط ليل نهار، وكيه بالنار أسابيع طوال.

ـ أتعرف يا ولدى، إن إحساسي بفقد الأمير "شهاب" تضاعف عن إحساسك بفقد حبيبتك عشرات المرات، لإحساسى بالذنب، لقد اعتبرت نفسي مسئولة عن وقوعه في الأسر، بسبب أنني التى أشرت عليه بصنع ذلك الفهد ذي العينين البللورتين أعلى الخوذة، استطاع جند الأعداء التعرف على هويته عن طريق ذلك الفهد.

. هونى على نفسك سيدتي لاتحملي نفسك ما لا تطيق، الكل كان يجتهد لإحراز النصر في هذه المعركة المصيرية..... هوني على نفسك سيدتي.....

❊ ❊ ❊

الملك والأميرة

حملني أبي برفق ووضعني على جواده "الأكثم"، ثم امتطاه وأنا مازلت أحتضن خوذة الأمير "شهاب" بقوة.

حاول أحد الفرسان الاقتراب منى بهدوء وطلب أن يحمل عنى الخوذة، رفضت في صمت وازددت تمسكا بها، تشبثت بها أكثر فأكثر دون أن أنطق بحرف واحد

حاول أبي أن يأخذها منى قائلا:

ـ حبيبتى، دعى هذه الخوذة الآن، سيحملها عنك أحد فرساني، وسيتوجه بها إلى القصر.

ازددت تمسكا وتشبثا بها دون أن أتكلم، نظرت لأبى والدموع تترقرق في مقلتى، هوت إحداها على وجنتى وأنا أحتضن الخوذة بقوة.

أسرع أبي يعدو بسرعة إلى القصر، ومن حولنا يعدو عشرات الفرسان، وحراس أبي.

توقف أمام درجات سلم القصر ثم ترجل من على جواده ثم حملني برفق وصعد درجات السلم حتى وصلنا إلى غرفتي.

ما أن رأت خادمتى "سمراء" أبي وهو يحملنى ويدخل بي إلى غرفتي حتى صرخت بصوت مكتوم وقالت:. مولاتى ليتني كنت مكانك!

وضعني أبي على الفراش بهدوء، أسرعت "سمراء" تجرى هنا وهناك وهي تبكى، انحنت تخلع حذائى الواحد تلو الآخر وتضعه على الأرض.

جلس أبي إلى جانبي على الفراش وهو يربت على رأسي ويقول:
ـ سانصرف الآن بنيتي، فما زال أمامنا الكثير لننجزه، علينا أن نطارد جند الأعداء الذين فروا إلى التلال المجاورة ، أخشى أن يعيدوا ترتيب صفوفهم ويعاودون الهجوم علينا مرة أخرى.
لم أستطع حتى أن أحرك شفتيّ، خارت قواى يا ولدي، هوت الدموع من عينى كسيول تهوى من أعلى جبل.
قام أبي من جانبى ثم قال في لهجة آمرة لكبير حراس القصر:
استدعوا كبير الأطباء في الحال، أعرف أنه يقوم بعمل جليل، لا أريده أن يتوقف عن علاج الجرحى، بل أريده أن يطمئننى على الأميرة "علياء"، منذ أن وجدت خوذة الأمير "شهاب" ملقاة على الأرض وبها اعوجاج شديد في الجبهة، يبدو أنه من أثر ضربة شديدة بالبلطة، وهي لاتتكلم، دموعها فقط تنطق بلسان حالها، أرجو من القدير ألا يكون قد أصابها مكروه.
أصدر الملك أوامره لقادة الجند بالبقاء في حالة استنفار قصوى في تلك الليلة، حتى يكونوا مستعدين لدرء أى خطر قد يتعرضون له خلال ساعات الليل. كانت المملكة في حالة نشاط غير عادى، رغم الظلام الذى خيم على المكان.
الفرسان يتحركون في كل مكان داخل وخارج الأسوار، الجنود يحملون الجرحى على عربات خشبية تجرها البغال إلى الساحة الكبرى داخل القلعة.
وما أن يصلوا إلى المكان، يحملون مصابا وراء الآخر ويضعونه على الأسرة المعدة لاستقبالهم، وفي لحظات يبدأ الأطباء في تضميد الجراح،

والنساء يساعدنهم في العناية بالجرحى. والأطفال يحملون الآنية الفخار وينقلون بها الماء ليطفئوا بها النيران التى شبت في بعض الأركان.

بدت المملكة كخلية نحل، كل فرد كان يحفظ عن ظهر قلب دوره خلال ساعات المعركة وما بعدها.

مضت ساعات الليل والملك بين فرسانه وجنده يتابع كل صغيرة وكبيرة، ويصدر أوامره بين الحين والآخر لسد ثغرة معينة يرى أن جند الأعداء قد ينفذون منها.

أوى الملك إلى خيمته بعد أن ألح عليه القادة أن يأخذ قسطا من الراحة ليكون مستعدا لقيادة الجند مع أشراق شمس الصباح.

كان أبي يشعر بغصة في حلقه، قلقه الشديد أفسد عليه فرحته بالنصر على مملكة "الجذام" غياب الأمير"شهاب" قضى على أى إحساس لديه بنشوة الإنتصار.

ما إن دخل خيمته حتى استدعى حارسه "مهاب."

. أوامر مولاي

ـ اختر بعضا من أخلص رجالنا، وأوكل إليهم مهمة فحص جثث القتلى من الجنود، إن عثروا على جثة الأمير"شهاب" قتيلا بينهم، عليهم إلا يخبروا أحدا البتة بذلك، عليهم إبلاغي أنا فقط.

. سمعا وطاعة مولاي.

عاد الجنود الذين وقع عليهم اختيار"مهاب" من مهمتهم بعد عدة ساعات وهم يحملون البشرى، لا يوجد أى أثر للأمير بين القتلى أو بين الجرحى.

ما أن أبلغوا الملك بالبشرى حتى كلف أحد حراسه بالتوجه على الفور إلى القصر، على أن يبلغ الأميرة بأن الجند لم يعثروا على أى أثر للأمير بين جثث القتلى أو الجرحى وأنه سيعود ما إن يفرغ من مطاردة فلول الجند الفارين إلى التلال للاطمئنان عليها.

وصل الفارس إلى أبواب القلعة، فتح الحراس الأبواب بسرعة، ما إن علموا بأنه يحمل رسالة من الملك إلى الأميرة.

اجتاز الحديقة الرئيسية بسرعة، صعد درجات السلم ووصل إلى جناح الأميرة "علياء"، أبلغ الحاجبين حاجته للقاء الأميرة، طرق أحدهما على الباب بهدوء، فتحت "سمراء" الباب وقالت: ماذا تريدان؟

تقدم الفارس خطوة للأمام حتى أصبح في مواجهتها قال:

. أحمل رسالة شفهية.....

وقبل أن يكمل كلامه قالت:

ـ مولاتي في حالة لا تسمح لها بلقاء أحد، كبير الأطباء يباشر عمله في علاجها.

. الرسالة من مولاي الملك.

ـ حقا، انتظر قليلا، ما إن يفرغ كبير الأطباء، سوف تدخل إلى جناحها، وتبلغها بمحتوى الرسالة.

مرت بضع دقائق، خرج كبير الأطباء من غرفة الأميرة ، وقال ل"سمراء":

ـ عليك عدم مفارقتها البتة، حالتها تسوء، الدموع لا تفارق عينيها، مازالت تحتضن خوذة الأمير "شهاب" يبدو أن صدمتها كانت قوية، لذلك عليك مراقبتها طوال الوقت، ربما تؤذى نفسها، أعطيتها بعض الأعشاب التى ستساعدها على الاسترخاء.

. عفوا سيدى، لدينا رسول يحمل رسالة من الملك للأميرة.
. أدخليه على الفور.
دخل الفارس ببطء إلى جناح الأميرة انحنى تحية لها وقال:
. حملنى مولاي الملك ببشرى لك سمو الأميرة، لم يعثر الجند على أي أثر لجثة الأمير "شهاب" بين القتلى أو الجرحى، الاحتمال الأكبر أن يكون قد وقع أسيرا في يد الأعداء.
نظرت الأميرة بطرف عينها لرسول الملك، ثم أغمضت عينيها.
. سيعود مولاي الملك ما إن يفرغ من مطاردة فلول الأعداء.
استدار الفارس وأسرع بالخروج من القصر متجها إلى ساحة المعركة.
أغلقت "سمراء" باب جناح نوم الأميرة "علياء" وتوجهت إلى فراشها، فوجدت كبير الأطباء يحاول دفعها للكلام، تارة يسألها عما تعانى منه، وتارة أخرى بتشجيعها، بحديثه عن البشرى السارة التى حملها رسول الملك. لم ترد الأميرة بكلمة واحدة، فقط كانت تذرف الدموع.
استدار كبير الأطباء ل"سمراء" وقال:
. لا فائدة، لن أصل إلى شيء إن لم تحدثني عما تعانى منه، لا يبدو أنها تعانى من شيء أستطيع علاجه !!! سأنصرف الآن وسأحضر فور عودة الملك من ساحة القتال.
خرج كبير الأطباء من غرفة نوم الأميرة "علياء" متوجها إلى الخيمة التى يوجد بها الجرحى من الجنود الذين أصيبوا خلال المعركة.
استدارت "سمراء" بعد أن أغلقت باب الغرفة وعادت إلى مقعدها بجوار فراش الأميرة، أمسكت بيدها برفق وقالت:
. مولاتى، حدثيني عما يجول بخاطرك، أنا خادمتك، وكاتمة أسرارك،

ألا تذكرين مولاتى لقد كنت دائما تتحدثين معى عما يعتمل في صدرك، لماذا لا تتحدثين معى الآن؟

لم تحرك الأميرة ساكنا بل ظلت متشبثة بخوذة الأمير "شهاب"، ودموعها تسيل على خديها

ـ أعلم مولاتى ما تعانين منه، إنه يفوق طاقتنا، ولكن علينا أن نتشبث بالأمل، لقد بحث عنه الجند بين القتلى والجرحى ولم يجدوه بينهم وهذه بشارة خير لنا جميعا، فما زال الأمير "شهاب" حيا.

أشار كبير مملكة "الجذام" لجنوده، أحاطو بالأمير "شهاب" وهو ملقى على الأرض والأغلال في يديه وقدميه، ثم أوقفوه بين يد كبيرهم الذى أشار إليه بإصبعه وقال مهددا: . ستتمنى لو لم تلدك أمك!!!

نظر إلى جنوده وقال:

ـ أذيقوه أشد أنواع العذاب، لا تقتلوه، أريده أن يعيش بين الحياة والموت، ثم أشار لهم بالانصراف.

اقتاد الجنود الأمير "شهاب" إلى زنزانته، طوال الطريق كانوا يركلونه بأقدامهم ، وبعد أن يسقط على الأرض، يرفعونه ثم يعاودون ركله في كل أنحاء جسده حتى يقع على الأرض، ثم يرفعونه مرة أخرى، فيمشى بضع خطوات وهو مكبل بالأغلال، ثم يسقط ثالثة على الأرض.

وصلوا إلى زنزانة، ما إن فتحوا بابها، حتى دفعوه داخلها بقوة، فسقط على الأرض.

أغلقوا بابها عليه، وانصرفوا وهم يتضاحكون.

❊ ❊ ❊

مرض الأميرة

انتهى الملك وقادة جيشه من مطاردة فلول الفارين من مملكة "الجذام" في التلال المحيطة، نزل الملك على رأى مساعديه من القادة، بأن يأخذ قسطا من الراحة، فلم يعد لجنود الأعداء أى أمل في تنظيم صفوفهم والعودة مجددا لساحة القتال.

أسرع الملك إلى القصر للاطمئنان على صحة الأميرة "علياء".

اقترب من فراشها بهدوء، سأل جاريتها "سمراء" التى ما إن رأته قادما حتى هبت واقفة في مكانها:

. ماذا قال كبير الأطباء؟

. قال إن حالتها تثير القلق

وجه كلامه لحارسه قائلا:

. أرسل في طلبه الآن يا "مهاب" . أمر مولاي.

انحنى الملك وقبل جبين الأميرة "علياء"، وقال بصوت ملأه الحزن:

ـ بنيتي الجميلة ألن تتحدثي إلى أبيك، أريد أن أسمع صوتك، إلى متى سيستمر صمتك!!!

لم تحرك الأميرة شفتاها بكلمة بل ظلت نظرات عينها جامدة ، فقط تذرف الدمع وتمسك بكلتا يديها بخوذة الأمير "شهاب".

وضع الملك يده بهدوء على يد الأميرة وهي ممسكة بخوذة الأمير، رفعها بهدوء، استسلمت له ، قبل يدها بعطف وحنان.

رفعت الأميرة يدها بلطف، فأمسك الملك يدها ووضعها بين راحتيه وقال:

. مازال الأمير "شهاب" حيا بنيتى.

سحبت الأميرة يدها بلطف من بين راحة يديه بهدوء وتشبثت ثانية بخوذة الأمير "شهاب".

بينما يحاول الملك أن يجعل الأميرة "علياء" تتحدث معه، طرق كبير الأطباء الباب، ثم إستأذن في الدخول.

انحنى لتحية الملك ثم تقدم بضع خطوات في اتجاه فراش الأميرة وقال:

. عمت صباحا مولاي.

. كيف تري حالة الأميرة؟

خفض كبير الأطباء صوته وهو يقول:

. لا تبعث على الإطمئنان مولاي.

أدرك الملك أن كبير الأطباء سيتحدث عن تفاصيل حالة الأميرة، ربما تضرها لو سمعتها أشار له بأن يتنحا جانبا ويتحدثا في هدوء.

ـ حالتها تثير القلق مولاي، دموعها مازالت تهوى من عينيها، جبينها يتصبب عرقا، لا تتحدث بكلمة واحدة، لم تتذوق الطعام منذ حادث الأمير "شهاب" أخشى على حياتها إن إستمرت هكذا ، الأمر المثير للحيرة مولاي أنها لا تشكو من تداعى عضو من أعضائها ، بل هو قلبها ، أكاد أجزم أنها مشغولة إلى حد لا يوصف على حياة الأمير "شهاب"، وهذا ما يفسر تشبثها الشديد بخوذة الأمير، لقد حاولت مرارا أن آخذها من يدها، ولكنها أبت بشدة أحيانا كانت تصرخ في صمت من داخلها، بدا هذا واضحا على نظرات عينيها لى وأن أحاول أن أجذب الخوذة منها،

وأحيانا كانت تعبر عن رفضها ترك الخوذة بدموعها التى كانت تهوى بغزارة على وجنتيها.

. ولكن هل سيستمر هذا طويلا؟

ـ أخشى من ذلك، أقسم بالقدير مولاي، أنني لو توصلت لعلاج شافٍ لها، لأعطيتها إياه وبسرعة، ولكن ليس للقلب علاج عندى، كل ما أستطيع أن أفعله الآن هو أن أعطيها جرعات من الأعشاب تحافظ على بقائها بصحة جيدة.

قال الملك بصوت مرتفع:

أين يمكن أن أجد علاجا لحالتها؟

. أعتقد مولاي أن السحرة يستطيعون علاجها.

يبدو أنه لا يوجد أمامنا طريق أخر نسلكه غير هذا الطريق، ثم وجه حديثه لحارسه وقال:

. أسرع في استدعاء كبير السحرة الآن.

. سمعا وطاعة مولاي.

أسرع " مهاب" خارجا من غرفة الأميرة علياء وبصحبته كبير الأطباء لتنفيذ أمر الملك.

التفت الملك للأميرة وقال:

آمل بنيتي أن يجد كبير السحرة علاجا شافيا لك.

❊ ❊ ❊

داء القلب

لم يمر وقت طويل حتى حضر كبير السحرة ، حاجباه كثيفان ، يبدوان على شكل هلال ، أنف طويل معقوف ، شفتان مكتنزتان ، قصير القامة أطول قليلا من الأقزام ، شعر أشعث ولحية طويلة ، في أحدى أذنيه حلقة مستديرة ، أصابع يديه غليظة ، يلبس فى كل واحد منها خاتم مختلف في شكله عن الأخرين ، سرواله طويل من قماش رخيص الثمن ، عليه رسومات تشبه العيون والأجفان.

دخل غرفتى، أدى التحية لأبي بانحناء، ثم قال:

. أمر مولاي.

لا أعرف ما الذى انتاب الأميرة "علياء"، وكبير الأطباء يقول أنها لا تشتكى من أى مرض فى جسمها، وكما ترى فهى تذرف الدمع ، وتحتضن خوذة الأمير "شهاب"، والذى لا نعرف إلى الآن مصيره، لم تنطق بكلمة منذ أن وجدناها في الأحراش.

. أريد أن أعرف الآن هل مسها الجان، أم تلبستها أرواح شريرة كانت في المكان.

اقترب كبير السحرة من فراش الأميرة "علياء" ثم ألقى بعض التعاويذ فوق فراشها وتحته ثم إستدار إلى أبي وقال:

. منذ متى وهي على هذه الحال مولاي؟

. منذ يومين.

. ألم تتحدث لأى أحد، أقصد هل كانت تصرخ حين عثرتم عليها مولاي؟
. لا، بل كانت منحنية وتحتضن فقط هذه الخوذة، والدموع تملأ عينيها.
رجع كبير السحرة بضع خطوات للخلف، استأذن الملك أن يتراجع للخلف، ثم أخرج من أحد جيوب سرواله علبة صغيرة، فتحها ببطء، نظر بطرف عينيه للملك، وضع جزء منها على راحة يده ورفعها، نفخ فيها وهو يقترب من فراش الأميرة "علياء".
تناثر البودر الذى كان على راحة يده وتطاير على فراش الأميرة وعلى وجهها.
تراجع كبير السحرة مرة أخرى للخلف، أصدر أصواتا غريبة بفمه وهو يصرخ، تارة بصوت مرتفع وتارة أخرى بصوت منخفض محركا يديه وأصابعه للأمام وللخلف.
اقترب مرة أخرى من فراش الأميرة وحاول جذب الخوذة التى كانت تحتضنها بقوة ، إزدادت تشبثا بها والدموع تنساب على خديها.
التفت كبير السحرة للملك وقال:
. عفوا مولاي، من صاحب هذه الخوذة؟
. الأمير "شهاب".
. وهل تربطها به علاقة دم مولاي.
. لا، إنه من أنقذها من الموت على يدى الذئاب.
. ألم يشعر مولاي أن مشاعر الأميرة قد تعلقت به!!!
. ربما ولكننا لم نتحدث في هذا الموضوع.
طلب كبير الأطباء الحديث وقال:

. عفوا مولاي، أؤكد أن مشاعر الأميرة تعلقت بشدة بالأمير "شهاب" تعلقا بلغ حدا لا يمكن وصفه، شعرت بهذا التعلق وأنا أداويه، لقد اتضح الأمر الآن وزادت قناعتي بما أقول لما رأيتها متشبثة بخوذة الأمير والدموع تنساب على خديها، الأميرة لاتشكو من مرض نعرفه ومن الممكن أن نطببه بالأعشاب وغيره بل هو داء لم نعرف له دواء بعد ، مهما حاولنا أن تجاهل حقيقة مشاع الأميرة تجاه من تحب فلن نصل لعلاج يجعلها تحب الحياة ، العلاج الوحيد في يد القدير.

ـ ليست أمامنا إختيارات متعددة كبير الأطباء ، لقد بحث الجند عن الأمير "شهاب" ولم يجدوا جثته بين جثث القتلى أو بين الجرحى، الإحتمال الأكبر أن يكون قد وقع أسيرا في أيدى الأعداء، أو أن يكون قد وقع في إحد الشراك والتهمته الضواري.

استدار الملك وقال مخاطبا حارسه:

. ائتني بكبير العرافين في الحال.

. سمعا وطاعة مولاي.

سأل كبير الأطباء الملك:

. ولكن ماذا سيفعل كبير العرافين مولاي؟

ـ أريد أن أعرف منه مكان الأمير "شهاب" وهل مازال على قيد الحياة أم قتله الأعداء؟

فتح حارس السجن باب زنزانة الأمير، وجده ما زال مغشيا عليه، رمى إليه كسرة من الخبز ثم استدار خارجا.

أيقظ صرير الباب الأمير "شهاب"، فتح عينيه بصعوبة، التفت حوله فلم يرى شيئا، الظلمة تغلف المكان،

لا يوجد في زنزانته غير شباك صغير في أعلى الحائط المواجه للباب.
سمع صوت أقدام تقترب من باب الزنزانة، توقفت ....
باب الزنزانة فُتح ثانية، صرير الباب الحديدي يكاد يصم الآذان، استطاع أن يميز أجسام ثلاثة رجال.
تقدم أحدهم منه ثم أفرغ دلوا مملوء بالماء على جسده العاري، كانت تعليمات قائدهم بألا يتركوه نائما البتة.
تقدم الآخران منه، وضع كل واحد منهما يده تحت إبط الأمير ثم رفعاه قليلا وسحباه خارج الزنزانة، كانت أوامر قائدهم، أن يستمر تعذيب الأمير ليل نهار، وفى نفس الوقت يحافظوا على حياته.
ربطوا يديه إلى الحائط بالأغلال ثم انهال أحدهم بالسوط على صدره وظهره حتى سالت الدماء، ثم فكوا القيود من يديه ووضعوا رأسه في قدر به ماء يغلى.
وفي أحيان أخرى كانوا يربطون كل يد بالحبال ثم يجذبون الحبال بقوة، كان صوت صراخه يرج المكان.
ما إن ينتهى السجانون من تعذيبه، حتى ينقلوه بين الحياة والموت مرة أخري إلى زنزانته.
عاد حارس الملك وبصحبته كبير العرافين، استأذن في الدخول، انحنى تحية للملك ثم قال: . أمر مولاي.
. أريد أن أعرف في الحال مصير الأمير "شهاب"، هل هو بين الأحياء أم بين الأموات؟
اتجه كبير العرافين إلى إحدى جوانب الغرفة، أخذ يرتل بعض التعاويذ وهو ينظر إلى السماء نظر الملك للأميرة "علياء " في شفقة وهي راقدة في

فراشها محتضنة خوذة الأمير المفقود، عادت به الذاكرة كثيرا للوراء، عندما كانت طفلة صغيرة، كلما رأته اندفعت نحوه بسرعة لكى تحتضنه. كانت كبيرة الوصيفات تنهرها بلطف وتقول لها:

. عليك أولا سمو الأميرة، أن تنحنى قليلا لتحية مولاي الملك كلما رأيته، هذه آداب اللقاء

وقبل أن تكمل حديثها كان الملك يضحك ويقول:

دعيها، فما زالت في طور الطفولة، ثم يقوم برفعها عاليا، يجلسها على قدميه مداعبا إياها بالقبلات أسفل أذنيها.

كانت تضحك بشدة وتقول له، لحيتك وشاربك أبتي.... لا أستطيع أن أتحمل ملامستهما لعنقى، وتضحك وهي تحاول النزول من على قدميه لتفر منه.

اقترب كبير السحرة من الملك وقال:

. عفوا مولاي، هناك شيء أريد أن أطلعك عليه!

. هات ما عندك.

أخرج كبير السحرة بلورة من جيب سرواله، ووضعها على المنضدة وقال:

. أحسب أن هذه البلورة ستفيد الأميرة "علياء" ما إن نتأكد من أن الأمير "شهاب" على قيد الحياة!

عاد كبير العرافين خطوات للخلف، ثم قال:

. مولاي الملك، الأمير "شهاب" مازال على قيد الحياة.... ولكن.....

تكلم لا تخش شيئا.

حالته تتدهور بسرعة، أشعر أنه ما بين الحياة والموت، من قراءاتى لمسار النجوم، أؤكد أن الأعداء يذيقونه أشد أنواع العذاب وأخشى ألا يتحمل هذا طويلا.

أشار الملك لكبير العرافين بيده، إشارة تعنى التزام الصمت، استدار وتوجه إلى نافذة غرفة نوم الأميرة "علياء".

عقد أصابع يديه خلف ظهره ونظر إلى السماء وقال:

. في اليوم الذى أحرز فيه نصرا مبينا على مملكة "الجذام"، تصاب ابنتي بمرض لا علاج له إلا رؤية من تحب، وهو في الأسر ويلقى أشد أنواع العذاب والهوان، ولا نعرف إن كان سيتشبث بالحياة ثانية ويعود إلينا سليما معافى، وأنا الملك المتوج على عرش هذه المملكة لا أستطيع أن أعيد إبنتى التى على وشك الهلاك إلى الحياة مرة أخرى. يا لسخرية القدير منا، كم نحن ضعفاء!!!

تلاحقت الأفكار السوداء بسرعة على خاطر الملك وهو ينظر إلى السماء، كان كمن يعترف بضعفه جهرا أمام القدير، ما زال الأمر يزداد تعقيدا.

الأميرة "علياء"، كما يقول كبير الأطباء، فقدت الرغبة في الحياة، ما إن رأت خوذة الأمير "شهاب" ملقاة على الأرض وهي مهشمة، والأمير بين الحياة والموت كما يؤكد كبير العرافين، وأغلب الظن أنه لن يستطيع تحمل هذا الكم من التعذيب مهما بلغت قوته.

ولكن، هل ستتحمل الأميرة البقاء طريحة الفراش لفترة طويلة؟ أم ستخور قواها ؟

❊ ❊ ❊

الابتلاء

نظرت السيدة العجوز لى نظرة محيرة ، مازلت أذكرها إلى الآن ، لم أعرف ماذا تقصد بها ، أم أنها كانت تريد فقط أن تستشعر وقع ما تسرده عليّ ، أيقنت الآن أنها بهذه النظرة ستنقلنى إلى تفاصيل أشد قسوة في قصتها ، وقالت:

ـ لا أريد أن أبالغ يا ولدى إن قلت لك أني كنت أشعر وأنا مسجاة على فراشى بين الحياة والموت بكل ما يحدث حولى ، كانت الحركة في جناح نومى غير عادية ومضطربة ، لم أعهدها من قبل ، وجود أبي في جناحي أمر معتاد ، ولكن الأمر الذى لم أعتد عليه هو وجود كبير السحرة وكبير العرافين وطبيب أبي الخاص ، لابد أن الحدث جلل كنت أتساءل في سكون ، ماذا يفعل كبير السحرة في غرفتي ؟ ومن الذى أتى بكبير العرافين إلى جناح نومى ؟ أشعر أن روحى قد إنفصلت عن جسدى ، هى هائمة في الفضاء تبحث عمن أحبت، وجسدى يرقد في الفراش ، ينتظر الإشارة لتلبية نداء الروح ، ولكن لا حيلة لجسدى فيما أنا فيه ، كنت أدرك أن كبير السحرة ، وكبير العرافين وأبي وطبيبه الخاص قد إجتمعوا في غرفتي لشىء واحد وهو أن يجمعوا فقط ما بين روحى الهائمة في الفضاء وبين جسدى الراقد ، في الفراش بين الحياة والموت.

أنا أيضا يا ولدي ، كنت أريد ذلك ، ولكن لم أكن أقوى على فعل شيء، أنظر فقط تارة لأبي وأشعر بالشفقة عليه ، لقد بذل مجهودا خارقا في

الأيام التى سبقت المعركة حتى الآلآم التى كانت تهاجمه على فترات ، أصبحت تهاجمه الآن مرات ومرات في اليوم الواحد.

اقترب طبيب أبي الخاص منه وقال:

ـ سأحضر بعض الأعشاب لكى تتناولها الأميرة ، أغلب الظن أنها لن تتناولها ، لذلك سأسحقها جيدا ثم أذيبها في الماء لكى تتناولها في صورة شراب ، ما أسعى إليه الآن أن أدفعها لعدم الإستسلام للحظة اليأس.

سأله الملك بصوت ملأه الحزن :

. كم من الوقت تستطيع أن تتحمله الأميرة وهي على هذا الحال ؟

. هذا يعتمد مولاي على إرادتها في التشبث بالحياة ، ولكن إن استسلمت سمو الأميرة من داخلها ، فلن يطول الأمر ، ربما تزهد الطعام والشراب ، وسيؤدى هذا إلى حالة من الهزال قد تدفعها لتمنى الموت ، كل ما سأفعله هو أن أبقى هذه الحالة على ما هى عليه إلى أن نجد حلا ، ربما يستغرق الأمر بعض الوقت ، علينا أن نساعدها على أن تتشبث بالحياة ، أعرف مولاي أن الأميرة قوية ، ولكن إلى الآن لا تتوفر لديها الرغبة في الحياة.

. هذا لاشك إبتلاء من القدير ، أأمل أن يخفف عنها.

انصرف كبير الأطباء من جناحى لإعداد مسحوق الأعشاب.

مازال أبي ينظر من شرفة غرفتي وخادمتى "سمراء" تقف عند طرف فراشى ، وكبير العرافين وكبير السحرة يتحدثان بصوت منخفض عن الحلول التى يرونها مجدية لعودتي مرة أخرى للحياة.

أنهى كبير السحرة حديثه مع كبير العرافين ، ثم اقترب من أبي وقال:

ـ عفوا مولاي، الأحداث تتوالى بسرعة ولكن سمو الأميرة توقفت عند حدث معين، ولن تستطيع عبوره بمفردها وهذا ما جعلها في هذه الحالة. اقترب كبير العرافين منهما وقال:

. لقد إنفصلت روح سمو الأميرة عن جسدها ، ولكن بشكل جزئى ، كما يحدث عندما ننام ، أما الوفاة مولاي هى إنفصال كامل بين الروح والجسد ، وحالة النوم هى إنفصال جزئى ، والأميرة تقريبا في هذه الحالة ، إن إستطعنا أن نعيد لها الأمل في رؤية الأمير "شهاب" سنكون قد تغلبنا على هذا الإنفصال الجزئى بين الروح والجسد.

رد الملك متسائلا:

ـ وكيف يمكننا فعل ذلك ، الأمير بين الحياة والموت ولا أمل تقريبا في عودته سالما.

قال كبير السحرة:

ـ عفوا مولاي ، صدمة الأميرة كانت شديدة للغاية ، عندما رأت جواد الأمير قد عاد إلى القلعة ولجامه يتدلى على الأرض ، إمتطته بسرعة وعادت به ثانية إلى الأحراش مخاطرة بحياتها حتى هذه اللحظة لم يكن أملها في العثور عليه حيا قد تلاشى ، ولكن ما إن رأت خوذته مهشمة بهذا الشكل ، لم يستوعب ذهنها فكرة أن يكون قد قتل ، لذلك حدث الإنفصال الجزئى بين الجسد والروح ، هي تتمنى الموت الآن لكى تراه ، إن إستطعنا أن نعطيها الأمل في أنها من الممكن أن تراه مجددا ، مع المحافظة على ألا ينهار جسدها من المرض ، سنكون قد ساعدناها على المقاومة والعودة مرة أخرى.

وضع كبير السحرة يده في جيب سرواله ، أخرج ثانية البلورة السحرية وقال: . مولاي سوف تلعب هذه البلورة هذا الدور.

. ماذا تقصد ؟

ـ ما إن تضع سمو الأميرة يديها على البلورة السحرية وتغمض عينيها ، سوف ترى صورة الأمير "شهاب" ماثلة أمامها ، سوف تتحدث معه ، وسوف يلعب عقل الأميرة دورا في رؤية ما تتمناه إلى أن تتحسن حالتها تدريجيا. لم يبدى الملك إرتياحه الكامل مما سمعه من كبير السحرة وكبير العرافين.

في هذه اللحظة ، دخل طبيب أبي الخاص وبيده قارورة مملوءة بالأعشاب واقترب من فراشي.

أحسست يا ولدي بيد أبي وهو يضعها خلف رأسي ويرفعه قليلا وبيده الأخرى يسقينى من قارورة الأعشاب.

بعد أن إنتهيت من تناولها ، إلتفت كبير الأطباء إلى أبي وقال:

. سوف أقوم بعمل برنامج علاجى لها ، يتضمن التريض صباحا ومساءا في حديقة القصر مولاي، كما كانت تفعل في السابق، رويدا رويدا ستستعيد عافيتها.

رد الملك قائلا: . أتمنى ذلك.

طلب كبير الأطباء من الحضور الانصراف حتى تخلد الأميرة للنوم وقال لأبي: . سأعود إليها في المساء، لمباشرة رعايتها ومصاحبتها خلال تريضها في حديقة القصر.

❊ ❊ ❊

البلورة السحرية

انصرف كبير العرافين بعد أن أنجز مهمته، أعني أنه اطلع على مسار النجوم، وأكد لأبي أن الأمير "شهاب" مازال على قيد الحياة، ولكنه يعانى من الضعف والهزال نتيجة التعذيب المتواصل طوال يومين، انصرف أيضا كبير السحرة بعد أن سخر ملكاته المختلفة لخدمة أبي، وأهداه البلورة السحرية.

رغم ذلك لم يقتنع أبي بكلامهما اقتناعا تاما.

فلا أحد يعلم على وجه اليقين، إذا كان الأمير "شهاب" ما زال حيا يرزق، ولا أحد يستطيع أن يجزم بصدق ما قاله كبير السحرة عن معجزات البلورة السحرية.

فلم أكن في حالة تسمح لي بتجربتها، وحتى إن قمت بتجربتها، فمن الممكن أن يقوم كبير السحرة بالتأثير على أعين الحاضرين فيجعلهم يرون ما يريد هو أن يروه، سواء بالخداع أو بالسحر الأسود.

توقفت السيدة العجوز أو قل الأميرة "علياء" عن الحديث برهة وقالت وهي تستدير:

. لقد تذكرت شيئا، أتري هذه الجماجم المعلقة على الحائط؟

. نعم سيدتي.

ـ أهداني إياها كبير السحرة لتحمينى من الأرواح الشريرة، طالت فترة مرضي، وأنا طريحة الفراش إلا من فترات التريض صباحا ومساء، والتي

كان يصحبني فيها كبير الأطباء وخادمتي "سمراء"، كان كبير الأطباء يأتيني صباحا ويصحبني إلى حديقة القصر ثم يعيدني إلى جناحى الخاص، ثم يأتيني بعد غروب الشمس بقليل ويصحبني إلى ضفة النهر، أملا في أن أخرج من الحالة التى أصابتني أو حتى أتحدث مع من حولى، كنت أمشي إلى جانب كبير الأطباء خلال النزهة الصباحية أو المسائية وأنا أستعيد الكثير والكثير من ذكرياتي مع الأمير "شهاب"، نعم أنا أذكر هذا المكان جيدا، كان يختبىء مني ويلتف حول هذه الشجرة طويلة العمر متعددة الأفرع متشابكة الأغصان، وكنت أبحث عنه، وأدور حولها، وحينما كنت أجده، كان يجرى منى، كنت أتشبث بملابسه، يقع على الأرض متعمدا ويجذبنى إليه.

ولكن لماذا لا نفعل ذلك الآن؟ أين هو؟ هل تركنى ورحل؟ أم أنه قد شُغل بغيري؟

الصمت كان دائما هو عنواني، طوال الوقت أحتضن خوذته.

رغم محاولاتهم جميعا التأثير عليّ وأخذها منى سواء باللين وبالرفق، أو بالقوة.

كان كبير الأطباء يحاول أن يجذب منى الخوذة في حضور أبي، كنت أصرخ بصوت عالٍ مستنجدة بأبي ليبعد أيدي طبيبه الخاص عني.

إستمر الحال ياولدي على هذا المنوال عدة أيام، ورغم محاولات طبيب أبي الخاص رعايتي إلا أن آثار الإرهاق بدت واضحة على جسمي، نتيجة اعتمادي بشكل أساسي في تغذيتي على ما يعده لي كبير الأطباء.

في مساء أحد الأيام، انتابت أبي حالة شديدة من القلق على مصيري، وقال لطبيبه الخاص إن استمر الحال بهذا الشكل، فسوف تنهار مقاومة الأميرة وربما تلقى حتفها.

أمسك بجرس صغير كان إلى جانبه وهزه بعصبية في الهواء، أصدر رنينه المعتاد، لحظات وفتح "مهاب" الباب ودخل.

. أمر مولاي.

. أرسل من يستدعي كبير السحرة في الحال.

. سمعا وطاعة مولاي.

أكمل أبي حديثه مع طبيبه الخاص وقال:

رغم أنى لا أثق في ما سيفعله كبير السحرة ثقة كبيرة إلا أنني مضطر لأن أستشيره في أمر الأميرة، حياتها على المحك، ولم تؤتِ الأدوية والأعشاب التى تناولتها طوال الأيام الماضية أى نتيجة، بدا الهزال واضحا على جسد الأميرة.

ما إن أتم أبي حديثه مع طبيبه الخاص على مرأى ومسمع مني حتى دخل كبير السحرة.

قال وهو ينحني: . أمر مولاي، هل من جديد؟

ـ أكاد أشك أن الأميرة "علياء" قد مستها أرواح شريرة، خلال بحثها عن الأمير "شهاب" في ذلك اليوم الأسود.

أرنا قدرتك في رفع هذا المس!!!

. عفوا مولاي، لم تتعرض الأميرة لأى مس شيطاني أو لسحر أسود، ومع ذلك سوف أقوم بتحصينها بهؤلاء.

أخرج كبير السحرة مجموعة من الجماجم الصغيرة لحيوانات وليدة،

مربوطة ببعضها البعض بشكل غير مألوف أو متناسق وقال:
على الأميرة، أن ترتديها كحلى على صدرها طوال الليل، ومع شروق الشمس تضعها خادمتها على الحائط.
إن تعرضت مولاتى لمس شيطانى سيحترق من حاول إيذاءها على الفور، ولكن ما بال البلورة السحرية مولاي، ما زالت البلورة في نفس المكان الذى تركتها فيه، قال ذلك وهو يتوجه للمنضدة ويمسك بالبلورة بكلتا يديه: . أطفئوا الشموع.....
ما أن فعلوا حتى رأى الجميع بمن فيهم أبي وطبيبه الخاص والحارس "مهاب" وخادمتي "سمراء" ضوءا خافتا ينبعث من بين يدى كبير السحرة وهويمسك بالبلورة بكلتا يديه ويتوجه بها إلى فراش الأميرة "علياء".
اقترب بهدوء من فراشي وقال:
ـ مولاتي سمو الأميرة، أمسكي هذه بكلتا يديك، ما أطلبه منك ليس سوى بالشيء الهين، وأحسب أنه سوف يساعدك كثيرا، عليك أن ترفعى يديك من على هذه الخوذة وأن تضعيهما على هذه البلورة، سوف تشاهدين الأمير" شهاب" ماثلا أمامك ما إن تغمضى عينيك، من الممكن أن تحدثيه عما يجول بخاطرك، سوف يرد عليك، ولكن لن يسمع أحد غيرك صوته مولاتي.
ما أن انتهى من حديثه إلى الأميرة، حتى رفعت يديها ببطء من على خوذة الأمير"شهاب" ووضعتهما على البلورة السحرية، ثم أغمضت عينيها.

❊ ❊ ❊

حتما سيكون اللقاء

كانت أنظار كل من بالغرفة، أبي، طبيبه الخاص، خادمتي "سمراء"، كبيرة وصيفاتي
تتجه صوب البلورة السحرية، والتى انبعث منها ضوء خافت.
كان كبير الأطباء أكثرهم شكا في نتيجة ما ستفعله هذه البلورة السحرية لإنقاذ حياتي
وكان أبي ما يزال بين مرحلة الشك واليقين في أن السحر مهما بلغت قدرته لن يعيد تشكيل الواقع من جديد.
أما اليقين لدى أبي هو أن الأمير "شهاب" قد وقع أسيرا في أيدى جنود الأعداء، وأن حالته النفسية والجسمانية في أدنى درجاتها، وربما بسبب التعذيب الذى يتعرض له قد يلقى حتفه ولكن هل يستطيع السحر أن يعيد تشكيل هذه الحقائق مرة أخرى، أم أن مهمة كبير السحرة ستنحصر في سحر أعين الحاضرين في هذه الغرفة.
وأما الشك فكان أمنية عزيزة على قلب أبي، أن تفلح هذه البلورة في أن تعيدني إلى الحياة مرة أخرى.
وأما خادمتى "سمراء" وكبيرة وصيفاتي، كانتا تتعلقان بالأمل في أن تؤتي هذه المحاولات بنتيجة تنعكس على حالتى الجسمانية.
أفاق الجميع من حالة الذهول على صوت كبير السحرة وهو يقول:

ـ علينا أن نتراجع قليلا للخلف، كى نترك لها المجال لتحدث الأمير "شهاب"

تراجع الجميع خطوات للخلف، ولكن ظلت أنظارهم كما هى معلقة بالبلورة السحرية.

مرت لحظات والكل يقف مشدوها، يراقبنى وأنا أضع كلتا يدي على البلورة.

اقترب أبي منى ثانية، ثم وضع يده خلف ظهرى وأجلسني في فراشى وهويسألنى:

. هل تريدين منى أن أصرف من في الغرفة؟

. لم أستطع حتى في هذه اللحظة، أن أجيب بنعم على سؤال أبي!!!

كنت أريد الاختلاء بنفسي وبالأمير "شهاب"، مرت عليّ أيام وليالٍ لم أفعل فيها شيئا غير احتضان خوذة الأمير، والبكاء بصوت مكتوم.

استطعت أن أستجمع شجاعتي وقوتي لكى أفعل شيئا واحدا أرد به بالإيجاب على سؤال أبي، أغمضت عيني لبضع ثوان ثم فتحتهما ثانية.

كعادته قرأ أبي أفكاري وأيقن أني أريد أن أختلي بنفسي كى أتحدث للأمير "شهاب"

نظرت لعينيه وهو يقترب منى ليقبل جبهتي، وجدت الدموع تتلألأ في عينيه، وهو يحاول أن يخفي دمعتاه ولايدعهما تسقطان على وجهه.

خانتاه، وسقطت إحداهن على وجنتى وهو يقترب ليقبل جبهتي، وهوت الأخرى على لحيته المكسوة بشعيرات بيضاء وسوداء.

. ما أغلى هذه الدموع، أرجوك أن تلتمس لي العذر، هذه هى المرة الثانية التى أراك فيها وأنت تبكي، ولاتستطيع حتى أن تخفى عنى دموعك، وعزة

القدير لو أستطيع أن أحرك ساكنا ما في جسدى الواهن الراقد على هذا الفراش لفعلت حتى أمنع هذه الدموع الغالية من السقوط، ولكن لما البكاء يا أبتى، ما الذى حدث؟ كل ما أذكره الآن أنى وجدت جواد الأمير "شهاب" عاد ولجامه قد تدلى على الأرض، امتطيته وعدت به من حيث جاء، ولكن أين الأمير "شهاب"؟ ولماذا استدعى أبي كبير السحرة وكبير العرافين، وطبيبه الخاص للمرة الثانية خلال أيام في غرفتي؟ ولماذا تقف خادمتى "سمراء" تحدق بي ودموعها تسيل على خديها، هل أنا مريضة؟ ربما..... كل الحاضرين في غرفتي يتعاملون معى على أن مرضا غريبا قد هاجمني، ومنعني حتى من تحريك لساني، ومنعني من أن أعبر حتى عما أشعر به!! ولكن أين الأمير "شهاب"؟ آخر مرة رأيته فيها، كنت داخل أحد الأبراج فوق باب القلعة، أحاول أن أسكب الزيت المغلى على جندى من جنود الأعداء، استطاع التسلل من خلال فجوة في السور إلى داخل القلعة، وبعد أن سكبنا عليه الزيت المغلى، رفعت رأسي ونظرت بعيدا لكى أطمئن على الأمير "شهاب"، وجدته وهو ممتطٍ جواده، ويقف إلى جانب أبي وهو يشير إلى أحد التلال، ما هى إلا لحظات حتى انطلق نفير، تجمع عشرات من الجند إلى جانب الأمير، أسرع يعدو بفرسه إلى المنطقة التى أشار إليها أبي، بعد فترة وجيزة اختفى الأمير وجنوده خلف هذا التل... ولكن ماذا تفعل هذه البلورة بين يدي؟ لقد أعطاني إياها كبير السحرة وهو يتمتم بصوت خافت:

. مولاتي سترين الأمير "شهاب" ما إن تضعى يديك عليها.

ـ ولكن ما حاجتي لأن أراه ما إن تلمس يدى هذه البلورة؟ كنت ألقاه وقتما أشاء! يبدو أن شيئا ما قد حدث ففرق بيني وبينه، أو على الأقل وضع حاجزا بيننا.

أحسست بأن شيئا ما قد بدأ يتحرك داخلى ويدفعني بقوة لأقاوم ما أنا فيه من استسلام كامل بعد أن رأيت دمعة أبي تهوى على وجنتي وهو يمسحها بحنو بالغ.

رفعت يدي ببطء، ثم أمسكت يد أبي وهو يمسح بها وجنتي، ثم قربتها من فمي ولثمتها.

نظر الحاضرون إليّ وكأنهم يقولون في أنفسهم ، لقد بدأت الأميرة في التجاوب معنا، مرت أيام وليالى وهي نائمة في فراشها ما بين الحياة والممات، كل ما كانت تفعله هو احتضان خوذة الأمير "شهاب" وهي تبكى، حتى عندما كان يصحبها كبير الأطباء في نزهة صباحية ومسائية في حديقة القصر أو على ضفاف النهر، كانت تمشى مسلوبة الإرادة، تمشى لأنهم كانوا يريدونها أن تمشى.

أراد أبي أن أختلى بنفسي ما إن أمسكت يده وقبلتها، شعر أن الحدث جلل، الحدث أقوى كثيرا من أن أتحمله، فقام على الفور من على فراشي ثم استدار خارجا من غرفة نومي وهو يقول:

. دعوا الأميرة تأخذ قسطا من الراحة.

فهم الحاضرون ما يعنيه أبي فاتبعوه للخارج.

ما إن خرج جميع من في غرفتي حتى أغمضت عيني وأنا أضع يدي على البلورة السحرية.

أراه بوضوح، إنه هو الأمير "شهاب"، يجلس على ركبتيه ورأسه محنى على الأرض، مكبلا بالقيود والأغلال.
كلما رفع رأسه ليحدثني، هوى الحراس على ظهره بالسياط، أراه يتألم بشدة، آثار التعذيب واضحة على جسده.
ينتظر فترة من الوقت ثم يعاود رفع رأسه لكى يحدثني، ولكنهم يكيلون له اللكمات في كل أنحاء جسده العاري المخضب بالدماء.
أخيرا رفع رأسه وحدثني، يا إلهى .....
إنه يراني، رغم أنينه من آلام الجلد إلا أنه يحرك شفتيه.
نعم إنه يحرك شفتيه، أنا لست واهمة، أكاد أسمع صوته وهو يقول:
سآتي حتما يا "علياء "..... سآتي ويكون بيننا لقاء.....

❊ ❊ ❊

الوفاء

في صباح اليوم التالي حضر أبي إلى غرفتي، ما إن دخل حتى قال:
. أراك اليوم أفضل كثيرا من الأمس وأول أمس أميرتنا الجميلة.
وضع ورقة ملفوفة كان يمسك بها جانبا.
نظر إلى وقال:
. ألا تريدين أن تعرفي ما تحتويه هذه اللفافة؟
إن بها مرسوما ملكيا، يقضى بتجهيز حملة لإنقاذ الأمير "شهاب" من أيدي الأعداء، وسيقود الحملة الأمير "بهاء"، وهي تستعد الآن للرحيل.
. ألا تريد سمو الأميرة "علياء"، أن ترى جندنا وهم على وشك الرحيل؟
أغمضت عينى لثوان ، ففهم أبي ما أريد

أشار لخادمتي "سمراء"، أنزلت قدميّ من على الفراش، مد أبي يده، وضعت راحة يدى على يديه، اتجهنا إلى الشرفة.
ما إن رأيت الجند وسمعتهم وهم يهتفون
حتى أحسست بأن جسدي يتماثل للشفاء
وبأن أملي يتجدد في الحياة والبقاء
كنت كل مساء
أتحدث للأمير وأنا أنظر للبلورة البيضاء

وأقول ما أجمل هذه العيون الزرقاء
أنقذتني من الموت يوما ومن الفناء
من ذئب حاول عليّ القضاء
سأنتظرك حبيبي مهما بلغ بي العناء
حبي لك سيكون دوما عنوانًا للوفاء.

تمت

للتواصل مع الكاتب

Amr Anwar

الإسكندرية ج . م . ع

(+٢) ٠١٠١٨٨٣١٣٦١

(+٢) ٠٣/ ٥٧٦٥٧٧٧

حسناء للنشر والتوزيع